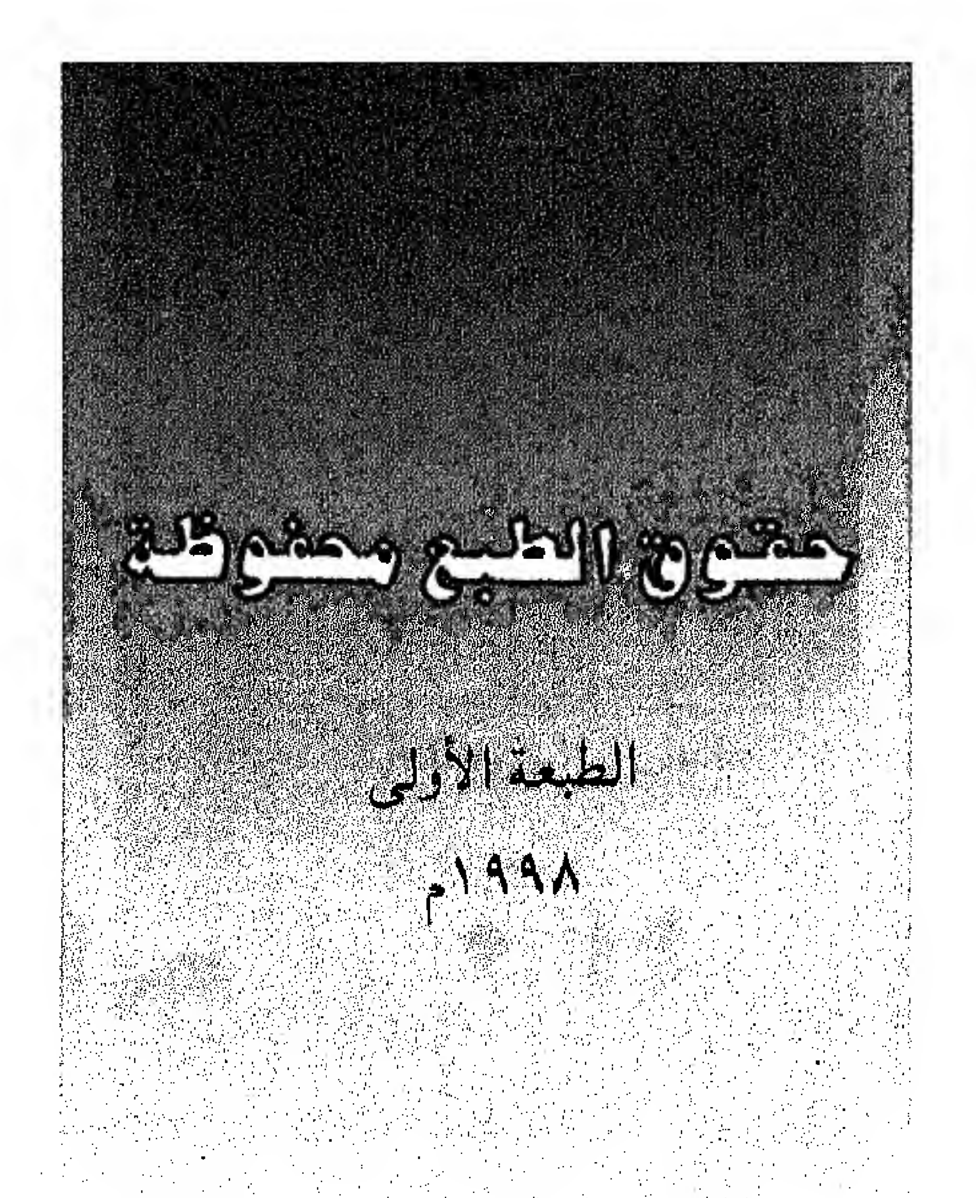
المهاجرون إلى الله

تأليف
مأمون غريب

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

التعبير عن مواجيدهم العالية حين شفت منهم الروح، وهناك من اتهمهم بالزندقة والكفر عندما تحدثوا فى وحدة الوجود. !

ولكنى فيما بينى وبين نفسى أحببت التصوف المعتدل بلا شطحات ولا تهويمات.. التصوف السنى الذى لايحيد عن الكتاب والسنة، وقد أجمع معظم الصوفية بأن الصوفى الذى يخرج عن الكتاب والسنة زنديق.. أو تلبسه الشبه، حتى لو سار على الماء وطار فى الهواء. !

كنت أقرأ لمحيى الدين بن عربى، وعمر بن الفارض وغيرهما من الصوفية الكبار، وعندما كنت أعجز عن فهم ما كتبوه شعرا أو نثراً، كنت أحاول أن أجد عذرا لنفسى بأننى ربما أكون قد عجزت عن فهم مقاصدهم، ولكن ليس لى أن اتهمهم بالخروج على الإسلام، فهم فى نظر كثيرين من مفكرى الإسلام من كبار رجال الصوفية.. وربما لعدم فهم البعض لهم جعل (ابن عربى) يشرح بنفسه ديوانه (ترجمان الأشواق) حتى لا يلتبس الأمر على أحد.

فالتصوف إذن هو الطريق الذى يسوق صاحبه إلى معارج النور.. لأنه يبتغى وجه والله.. ومن يتجه صوب الله لن يجد من الله إلا الرحمة.. لأنه هو الرحمن الرحيم

مأمون غريب

وكان من الطبيعى أن يكون لكل شيخ طريقته . . ولكل طريقة أتباع . . وهؤلاء قال فيهم الإمام القشيرى فى (الرسالة القشيرية) :

«فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم عن الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم من الحق بالحق ، صفّاهم من كدورات البشرية ، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفقهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أوصفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد» .

ونرى مؤلف عوارف المعارف (السهروردى) وهو يحدثنا عن منشأ علوم الصوفية . . يورد أحاديث كثيرة يستمد منها الصوفية علومهم فالرسول عليه الصلاة والسلام قال :

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله

فالفقر كائن فى ماهية التصوف، وهو أساسه وبه قوامه.

ويورد قول ذو النون المصرى:

الصوفية آثروا الله تعالى مع كل شئ فآثرهم الله على كل شىء فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على عِلم نفوسهم، وإرادة الله على إرادة نفوسهم.

ويقول ذو النون المصرى أيضاً:

رأيت ببعض سواحل الشام امرأة، فقلت:

من أين أقبلت؟

قالت: من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

فقلت: وأين تريدين ؟

قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

قلت: صفيهم لى..

فأنشدت

قوم همومهم بالله قد علقت
فما لهم هِمِمٌ تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم
باحسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنُيا ولا شرف
من المطاعم واللذات والولد

الجيلانى المتوفى سنة ٦٥١هـ، كما ظهر بعدهم الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ، وتلميذه أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦هـ.

وكانت الطرق الصوفية هى التطبيق العملى للتصوف النظرى ولا أقصد بالطرق الصوفية تلك التى تسبح فى الخرافات والأساطير وتقديس مشايخ الطرق.. فكل هذه الأمور دخيلة على التصوف الصحيح.. فالتصوف الصحيح هو الالتزام بالكتاب والسنة، وإذا كان للبعض كرامات، والكرامات لا تستغرب عليهم، ولكن ليست الكرامة سوى إشعار الصوفى أنه قريب من ربه، ولكن ليست مدعاة للزهو أو الكبرياء وليست وسيلة لتكسب المريدين.. بل إن المتدين الحقيقى هو الذى يبغى من وراء عبادته وصفائه إخلاص القلب لله.. لأن الغاية عندهم هو ما ورد فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]

وكان الشاذلى يقول:

«أرجع عن منازعة ربك تكن موحدا، واعمل بأركان الشرع تكن متشرعا، واجمع بينهما تكن محققاً».

والصوفى على حد تعبير السرى السقطى :

التصوف اسم لثلاثة معان: أن لا يطفئ نور معرفة الصوفى نور ورعه، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

فالصوفى الحقيقى إذن لابد أن يكون ملما بالكتاب والسنة، ويسير على نهجهما. . وهذا يتطلب منه أن يكون على علم، وهذا لا يمنع أن يهبه الله من العلم اللدنى ما يضئ له طريقه.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

«رب عابد جاهل، ورب عالم غافل، فاحذروا الجهال من العباد، والغافلين من العلماء».

ولا يعرف قيمة الصوفية إلا من عايشهم وسار طريقهم، ونهج نهجهم حتى يمكنه أن يتذوق ما يتذوقونه من مواجيد تستعصى فى بعض الأحيان على اللغة. . أو بمعنى أدق. . فإن اللغة لا تسعف عن تجسيد ما يحسونه وما يشعرون به.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يروى حديثا عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

«إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله عز وجل».

ومن أجمل ما قيل عن التصوف ما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه:

«إن التصوف مذهب أو علم الغرض منه تصفية القلب من غير الله والصعود بالروح الى عالم التقديس وإخلاص العبودية للخالق، والتجرد بالقلب عمن سواه، وهو نزعة قديمة كقدم النزعة التى

أوجدته، فإن الانسان منذ آلاف السنين أدرك أن خلف هذا الغلاف الجسمانى، سر روحانى ووراء مظاهر الكون سر إلهى، ونشأ هذا المذهب فى العرب وغير العرب منذ آلاف السنين».

وإذا كنا نسمع عن الأحوال والمقامات عندهم فإن ذلك سمة من سماتهم.

* * *

٢- محظورات التصوف

إذا فهمنا التصوف على أنه طريق الإحسان كما فهم صوفية الاسلام.. الذين يستندون إلى الحديث الشريف:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن فإنه فهو يراك».

فعلينا لكى نسير فى الطريق الصحيح دون أن نقع فى المحظورات أن نستبعد منه ما علق به، أو ما حاول البعض أن يربطوه به كوحدة الوجود، أو الفناء، أو الحلول، وكلها مفهومات لا يقرها الإسلام.. فالإسلام لا يقر بحال من الأحوال أن يكون الله هو مجموعة الموجودات.. كما يقول دعاة وحدة الوجود.. والله فوق كل شئ.. ولا يشبهه شئ.. ولا يمكن تصوره.. لأنه فوق الحواس.. وفوق الإدراك.. الله شئ آخر غير مخلوقاته.

أو على حد تعبير الشيخ أحمد حسن الباقورى:

«... وإذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية، فهى عنده وحدة الفضائل الإلهية ووحدة التوحيد.. وقد يوفق المسلم الصوفى بين الظاهر والباطن فيقول: إن الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب، والحقيقة من غير الشريعة إباحة وفسوق، وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية بمذهب جميل معتدل بين الطرفين، فليس الزاهد من لا يملك شيئا، بل الزاهد من لا يملكه شئ، فهو مالك للدنيا وليس مملوكا لها فى أى حال».

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦] ثم يحملون الجنابة فى الآية على أنها التسارع إلى إفشاء السر لمن يبدى استعداده لقبول دعوته إلى الفوضى والإلحاد باسم الدين، ويسند من القرآن الكريم، ثم يحملون التطهر على وجوب تجديد العهد على من فعل ذلك.

ويفسرون كلمة الصيام، بانها الإمساك عن كشف السر، والكعبة بأنها النبى، والباب بأنه علىٌّ، والتلبية بأنها إجابة الداعى، والطواف سبعا بأنه الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، ونار إبراهيم بأنها غضب نمروز وليست النار الحقيقية، ويفسرون عصا موسى بأنها حجته التى تلقف شبهات سحرة فرعون، وانغلاق البحر بأنه افتراق علم موسى فيهم، ويفسرون الجن الذين ملكهم سليمان بأنهم الباطنية فى زمانه، ويفسرون الظاهرية بأنهم هم الشياطين الذين كلفوا بالأعمال الشاقة.

ثم يقرأون قول الله جل ثناؤه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٣]

ثم يصرفون الآية الشريقة عن معناها الذى أنزلت من أجله، إلى معنى ترضاه الباطنية وتستغله بين العامة والغوغاء ويجارون به نزواتهم وشهواتهم، فيقررون أن الذين أجرموا هم الذين يسخرون من أهل التصوف، وأن الذين أمنوا هم المتصوفة الذى يسخر منهم

فالتصوف السليم . . المستمد من الكتاب والسنة، ودون مغالاة لا غبار عليه، وإنما الغبار على من يجنحون نحو فلسفات دخيلة عن الإسلام وروح الإسلام، وهنا نجد المحاذير التى يجب أن يبتعد عنها كل من يريد أن يلتزم طريق الشريعة الغراء، لأن الشريعة والحقيقة وجهان لشئ واحد عند الذين يفهمون التصوف فهما صحيحاً.

ولهذا فإن العلم هو مبتغاهم، حتى لا يقعوا فى المحظورات.

ويقول «أبو مسلم الخولانى»:

العلماء ثلاثة:

عالم عاش بعلمه وعاش الناس معه.

وعالم عاش بعلمه، ولم يعش الناس معه.

وعالم عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه.

فالعلم هو العاصم من الوقوع فى الزلل. . لأن من يعرف كتاب الله وسنة الرسول، سوف يبعد عن طريق الأخطاء التى تحدق ببعض رجال الصوفية، ومن هنا فقد كان أحدهم (وهو إبراهيم التيمى) يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم اعصمنى بكتابك، وسنة نبيك من اختلاف فى الحق، ومن اتباع للهوى، ومن سُبُل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ واللْبس».

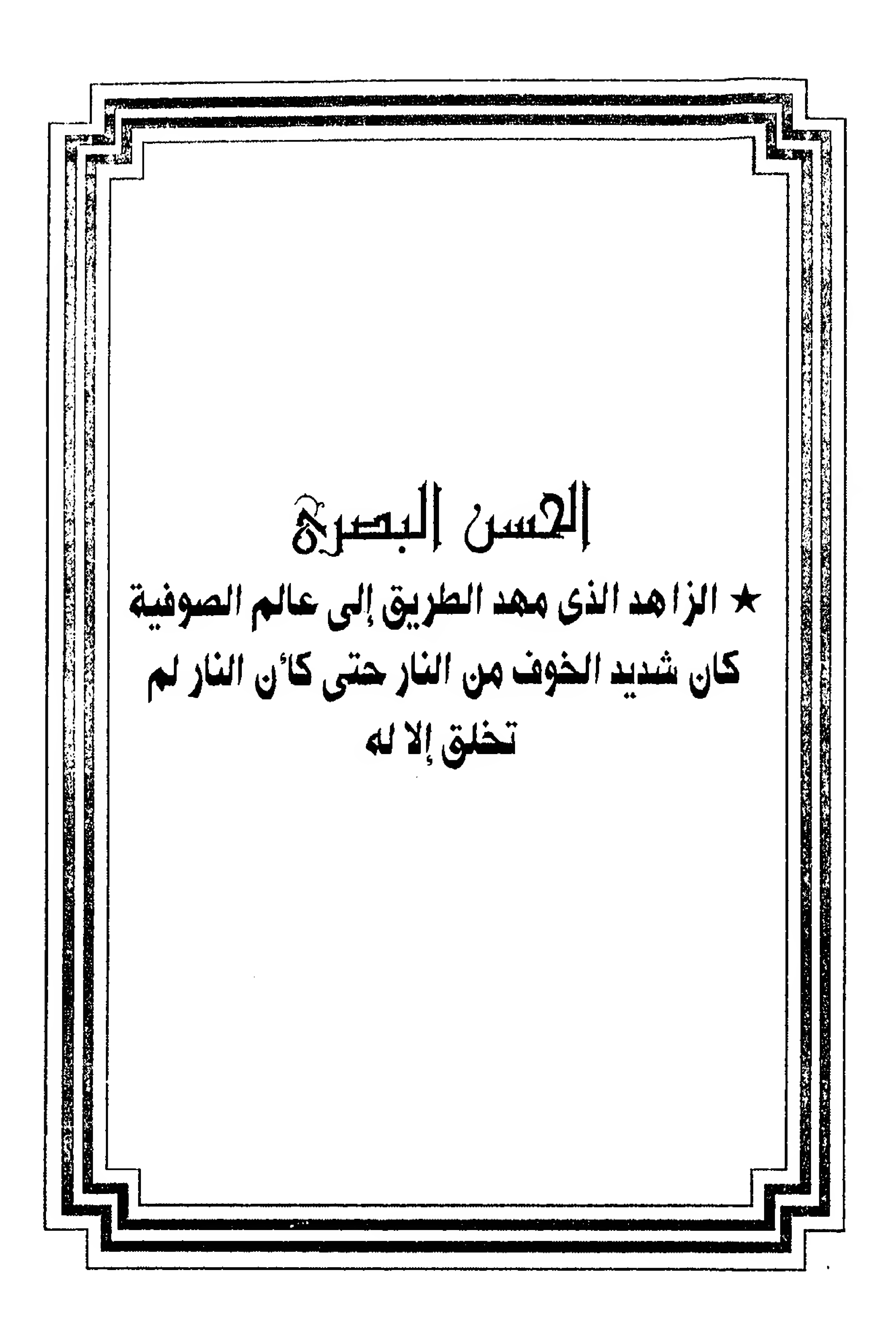
وعندما ترى الصوفى بهذه الصورة. . صورة الإنسان الذى يتوجه بكل كيانه إلى الله، يستلهمه الهدى والرشاد، ويطلب منه

الاقتراب منه بعمل الحسنات، والبعد عن السيئات، والعمل بالحلال، والبعد عن الحرام. . من خلال معرفته بما أحل الله وبما حرم. . عندما تعرف كل هذا نعرف أن الصوفية الحقه هى التى تنهج الطريق السليم ومنتهى آمالهم، كما يقول إبراهيم النخعى:

«من أحسن الله صورته، ووسع رزقه، وبوأه منصبا صالحا، ثم أدى حق الله فى كل هذا وتواضع، كان من خاصة أهل الله».

ومع خاصة الله نقف على بعض سيرهم التى سماها الإمام الغزالى بأنها أحسن السير، ونجوب معهم عوالمهم التى تجمعها الإخلاص والنور، مبتعدين عن كل ما يحول دون شفافية أرواح هائمة بحب الله، لاتبغى ولا ترى بديلا عن الحب الإلهى الذين يعبرون به ومن خلاله إلى مدارج لا تخطر على البال، عوالم يحسونها بقلوبهم النقية، ونفوسهم الطاهرة، وأرواحها التى تسمو إلى مالا يمكن تخيله ولا حتى بمقاييس الخيال.

مهما يكن من شئ فإن الإبحار فى عالم الصوفية، هو إبحار الى أطهر العوالم وأنقاها. . ونعيش من خلالها مع أحباب الله وأهله فى مسيرة معطرة. . نرى من خلالها نفوسا عاشت لله وبالله، فكانوا نور هداية وقدوة لكل من يريد أن يسلك طريق الله. . حيث الإحساس بأجمل المشاعر، وحيث البحث عن الحب الإلهى. . ذلك الحب الذى يطهر النفس، ويسمو بالروح. . إلى معارج النور.



الحسن البصري

★ الزاهد الذى مهد الطريق إلى عالم الصوفية
كان شديد الخوف من النار حتى كأن النار لم تخلق إلا له

قبل الدخول فى عالم هؤلاء الأبرار المسافرين دوما نحو الله، المهاجرين إليه.. والذين لايبغون سواه.. إليه يتوجهون، وعليه يتوكلون.. ولا تساوى الدنيا كلها عندهم جناح بعوضة.. هؤلاء الناس كان يطلق عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام أنهم (أهل الله)..

وهؤلاء الناس عاشوا حياتهم فى حب الله لأنهم يتطلعون إلى ماعنده.. وحبهم لله جعل أشواقهم إليه قوية، فأحبوا عبيده، وكان الحب هوالأريح الذى يعطى لحياتهم معنى.. فلا قيمة للحياة فى نظرهم إلا إذا كانت وسيلة لغاية.. والغاية هى الحب الإلهى.. فعملوا بكتاب الله وسنة رسوله.. وفى رأيهم أن الذين لايعملون بما جاء فى الكتاب والسنة دجالون حتى ولو مشوا على الماء أو طاروا فى الهواء. أو على حد تعبير الإمام مالك رضى الله عنه:

(من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق، من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ثم تصوف فقد تحقق).

وهذا يعنى أن العابد الحقيقى هو الذى لا يحيد عن شرع الله. وقارئ حياة هؤلاء الناس يرى عجبا.. يرى أرواحا هائمة فى حب الله، وأجساد وهنت فى سبيل الله، فكانوا مصابيح هدى، ونور هداية لمن يريد أن يطهر نفسه، ويزكى روحه.. إنهم المهاجرون دوما إلى الله.

* * *

ونبدأ رحلتنا الميمونة مع أحد أقطاب الزهد فى الإسلام وهو أبوالحسن البصرى. . .

الزهد هو المرحلة التى سبقت التصوف الاسلامى ومهدت له، ولم يأت هذا الزهد من فراغ، فهو ليس فلسفة اخترعها البعض، ولكنه مستمد من الكتاب والسنة فقد وجد الزهاد فى كتاب الله وسنة الرسول القدوة فى زهدهم وبعدهم عن متاع الحياة الدنيا والإقبال بقلوبهم وعقولهم على الله. . ولا يعنى الزهد البعد عن الدنيا. وعدم المشاركة فيها، وإدارة الظهر لها، وإلا كانت هروبا. . ولكنه هدف ليحقق به الإنسان ذاته. . فلا يصبح عبدا للحياة. . ولا عبدا لما فيها. . ولكنه بالزهد يتغلب على أهواء النفس، وشهوات البدن. . فتصبح الحياة ملكا له. . وليس هو عبدا لها. .

وقد وجد هؤلاء الزهاد فى سلوك الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام قدوة. .

فقد كان عليه الصلاة والسلام قبل أن تأتيه الرسالة دائم التفكير والتأمل فى الكون، ويتحنث فى الأيام ذوات العدد من شهر رمضان إلى أن جاءه وحى السماء. . فدعا إلى الاسلام، وجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله. . .ومع ذلك لم يعرف عنه الترف ولا الإقبال على الدنيا رغم أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر. . .حتى أن عائشة عندما سألته عن كثرة عبادته وعن قيامه الليل حتى تتورم قدماه. .

ـ لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ .

فرد عليها أعظم رسل السماء

«أفلا أكون عبدا شكورا» .

وكان أصحابه كذلك . . يحبون الزهد . . وترتاح قلوبهم إليه فها هو أبوبكر الصديق يقول:

«إذا دخل العبد العُجب بشئ من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة» .

وها هو خليفته العظيم عمر بن الخطاب الذى كان مثالا للتقوى والزهد رغم أنه دانت له بلاد الفرس ومعظم بلاد الروم . . حتى رددت الدنيا ماقاله عنه طلحة بن عبيد الله:

ما كان عمر بأولنا إسلاما، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا فى الدنيا، وأرغبنا فى الأخرة» .

وكان عثمان رضى الله عنه رغم ثرائه الكبير فهو الذى جهز جيش العسرة، وهو الذى اشترى بئر من أحد اليهود ووهبه للمسلمين . . فهو كان يملك المال ولم يملكه المال، وأنفق منه الكثير فى سبيل الدعوة . . ومع كل ذلك . . كان شديد الخوف من الله . . شديد العبادة . . يكثر من قراءة القرآن، حتى أنه قتل وهو يقرأ فى كتاب الله الكريم . .

وكذلك نجد الإمام عليٍّ بن أبى طالب. . مثالا للزهد والتقوى وعدم التكالب على الدنيا، حتى عندما أصبح الخليفة الرابع للمسلمين، كان شديد الزهد فى الدنيا. . شديد الخوف من الله. . حتى أنه صور نفسه وهو يلوى عنقها. . حتى يسلس قيادها للعبادة. .

« ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم، كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب » .

والزهاد وجدوا بجانب القدوة فى رسول الله وصحابته الكرام، مدى احتفاء النبى لأهل الصفة الذين انقطعوا للعبادة فى أيام الرسول. . وكان بعضهم من الأنصار والبعض الأخر من المهاجرين، ولم يكن يملكون من متاع الحياة شيئا. . وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف ـ ٢٨]

كل هذا مهد لقيام جماعة من الزهاد عطر التاريخ بأسمائهم. . وعطر بمواعظهم. . ووجد فى سيرة حياتهم نماذج لأناس قهروا ما فى الحياة مما يذل الإنسان. . عندما يحنى هامته للترف أوالجاه أو متع الحياة. . لقد كانوا أنوار هداية لكل من ينشد ما عند الله. . ويكونون عبيدا لله. . لا عبيدا للدنيا. . عاملين بما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله:

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . .

وربما كانت الظروف السياسية التي حدثت في نهاية حكم عثمان رضي الله عنه، وما نتج عن ذلك من فتنة كبرى عمت العالم الإسلامي كله عقب استشهاده . .

فهناك من تشيع للإمام عليٍّ بن أبي طالب . . وهناك من طالب بدم عثمان وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان . . ثم كانت الحرب الأهلية في الإسلام بين عليٍّ ومعاوية، وظهور الخوارج . . كل هذه العوامل ساعدت أن تظهر طبقة تريد أن تنأى عن هذا الصراع الدامي . . فزهدوا في الدنيا . . وما فيها من انقسامات سياسية وآراء بعدت بالإنسان عن جوهر الدين السليم كما فعل الخوارج . . ومن هنا ظهرت مدارس الزهد المختلفة . . وكان أشهرها مدرسة ظهرت في البصرة وأخرى ظهرت في الكوفة . . ومن أشهر متصوفة البصرة الحسن البصري . .

* * *

ولد أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن في المدينة سنة ٢١هـ، وأمه كانت مولاه لام سلمة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلم يكن غريبا أن يتشرب بحب الإسلام منذ نعومة أظافره، وأن يأخذ العلم من الصحابة فقد نشا في مدينة رسول الله التي كانت تعج بهولاء الذين صاحبوا الرسول. وأخذوا منه العلم وسلكوا طريقه، وعرفوا كيف كان عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الإسلام بالحسنى،

متخلقا بخلق القرآن الكريم . . حتى أنه قال معبرا عن هذه الفترة من حياته التى عاشها مع من عاشوا تحت أضواء الرسالة الخالدة :

أدركنا أقواما كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم» .

لقد اعترف الحسن البصرى أنه اغترف علمه عن (حذيفة بن اليمان). وهو صحابى جليل زاهد تقى، عندما عينه عمر بن الخطاب واليا على المدائن، وانتظره الناس فوجدوا عجبا، إنسان شديد التواضع، يركب حمارا، وفى يده كسرة من الخبز وبعض الملح . .

وكان أول ما نصح به الناس البعد عن مواقف الفتن، وعندما سألوه عن مواقف الفتن قال لهم: أبواب الأمراء. . يدخل أحدكم على الأمير أو الوالى فيصدقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه .

لقد تربى أبو حذيفة فى أعظم مدرسة عرفها الإسلام، أستاذها الأعظم محمد بن عبد الله. وهو الذى يروى عنه هذا الحديث الجليل. . فيقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . .

قلت: يا رسول الله، إنما كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير . . فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: «نعم»

قلت: فهل بعد هذا الشر من الخير؟

قال: «نعم، وفيه دَخَن».

قلت: وما دخنه؟

قال: «قوم يستنون بغير سنتى، ويهتدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر».

قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت: يا رسول الله، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

وحذيفة بن اليمان هو الذى صاحب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فى معاركه، وهو الذى خاض المعارك خارج حدود شبه الجزيرة العربية يوم اشترك فى قتال الفرس وأبلى فيه بلاء حسنا.. وهو صاحب هذه الحكمة:

ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين يأخذون من هذه.. ومن هذه..!

هذا الصحابى الجليل هو أستاذ الحسن البصرى الذى اقتفى أثره فى معرفة الشر حتى يتجنبه، ومعرفة الخير حتى يعرفه ويسير على نهجه..

ويروى الرواة عن حذيفة أنه عندما حضرته الوفاة، وطلب من أصحابه أن يروه الكفن الذى سيخرج به من هذه الدنيا، ووجده جديدا فقال لهم:

- ما هذا لى بكفن.. إنما يكفينى لفافتان بيضاوان ليس معهما قميص.. فإنى لن أترك فى القبر إلا قليلاً، حتى أبدل خيرا منهما أو شرا منهما..

وكانت آخر كلماته: مرحبا بالموت.. حبيب جاء على شوق.. لا أفلح من ندم..

* * *

كان الحسن البصرى شديد الخوف من الله حتى قيل عنه أنه شديد الخوف من النار حتى لكأن النار لم تخلق إلا له!.

فكان مع تلاميذه شكلوا مدرسة للزهد شعارها الخوف من الله.. فهم يعملون حتى ينالوا ثواب الله، ويتوج أعمالهم بالجنة والتى فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

ولكن الخوف الذى كان يتسم به الحسن البصرى ساقه إلى الحزن.. حتى أنه عبر عن ذلك بقوله:

«إن المؤمن يصبح حزينا، ويمشى حزينا، ولا يسعه إلا ذلك، لأنه بين مخافتين:

بين ذنب مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه.. وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيبه من المهلك؟».

والخوف من الله ماذا يعنى؟

يعنى أن يتجنب ما حرمه الله.. فلا يقترب من الحرام.. ولا يقارف الإثم.. ويكون القرآن الكريم وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام هما الأهل والمبتغى.. وإذا ما اعترى الإنسان الخوف من ربه، فلا يمكنه أن يقترب إلى كل ما يقربه إلى النار.. بل يعمل ما يقربه إلى نعيم الجنة.. وكلما تعمق الإنسان فى معنى الحلال ومعنى الحرام.. انتابه الخوف أن يقترف ما يجعله يندم على ما قدمت يداه.. وقد ساقه ذلك إلى قوله:

«الرجاء والخوف مطية المؤمن».

وقال أيضا:

«إن المؤمن يصبح حزينا، ويمضى حزينا، ويتقلب باليقين من الحزن، ويكفيه الكف من الثمر والشربة من الماء!»

وطالما نصح تلاميذه.. ونصح الناس ألا تغرهم الدنيا بما فيها من مفاتن وما فيها من إغراءات، فهى ظل زائل، ولم يكْتب لأحد فيها الخلود.. فهى سحابة سرعان ما تنقشع.. ولا فائدة ترجى منها إلا ما يقدمه المرء فى رحلة حياته القصيرة من عمل فى رضاء الله، وفق ما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام.. وما عدا ذلك فلا قيمة لهذه الدنيا.. ومن هنا نراه يقول:

«يا ابن آدم أنت اليوم فى دار هى لاقطتك، ثم تفضى بأهلها إلى أشد الأمور وأعظمها خطرا، فاتق الله يا ابن آدم، وليكن سعيك فى دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شئ إلا ما صدرت أمامك ولا تدخرن عن نفسك مالك، ولا تتبع ما قد علمت أنك تاركه خلفك». .

فالهدف من الدنيا فى نظره أن تكون وسيلة لعالم خالد لا يفنى.. عالم خالد خلودا أبديا.. والخلود الأبدى لابد أن ينعم فيه الإنسان.. والنعيم فى الجنة تلك التى وعد بها الله عباده المتقين.. وعباده هم الذين يعملون الخيرات ويتجنبون الخبائث..

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]

فالطريق إلى الجنة يحتاج الى الزهد فى دنيا لا تدوم، وحياة مصيرها إلى الزوال.. إنه يصيح فى الناس ليعوا هذه الحقيقة البسيطة والسهلة.. ومع بساطتها فهى تخفى على الناس فيقبلون على الدنيا وكأنهم سيخلدون فيها مع أنها ظل زائل..

يقول الحسن البصرى:

«يا ابن آدم عملك.. عملك فإنما هو لحمك ودمك».

فانظر إلى أية حال تلقى عملك.. لأن لأهل التقوى علامات يعرفون بها:

- صدق الحديث...

- والوفاء بالعهد. . .

- وصلة الرحم. . .

- وحسن الخلق. . .

- وسعة الخلق. . مما يقربك الى الله عز وجل وهو القائل:

«بئس الرفيقان الدرهم والدينار، لا يرافقانك حتى يفارقاك».

* * *

ما أكثر الروايات التى تروى عن هذا الرجل وما أكثر الحكايات التى يحكيها الرواة عن هذا الزاهد التى امتلأت بها كتب الزهد والتصوف. .

وهذه الحكايات تبرز لنا كيف كان هذا الرجل شديد الورع. . شديد الخوف من الله. . حبب الناس فى ضرورة أن تكون أموالهم التى فى يدهم تكون فى خدمة من يحتاج إليها. . وأن على الأغنياء أن يؤدوا على الأقل حق الله فى زكاة المال، والصدقة، حتى يملكوا المال، لا أن يتملكهم المال. .

رأى ذات يوم رجلاً يأكل بين المقابر فتعجب وقال للرجل: أما فى حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل!

وعندما بنى أحدهم قصرا، دعا إلى زيارته فيه الحسن البصرى ونظر الحسن إلى القصر من الخارج ومن الداخل، وأذهله ما فيه من فخامة، وكأن صاحبه سيعيش أبد الدهر، وتداعت إلى ذهنه خواطر

عدة . . لماذا لا يبنى لأخراه ما بناه لنفسه فى دنياه . . وقال له :

«أخربت دارك وعمرت دار غيرك . .

لاغرك من فى الأرض، ومقتك من فى السماء . .

طأ الأرض بقدمك فإنها بعد قليل قبرك. إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك» . .

وكان الحسن البصرى بجانب زهده فى الدنيا عالما . . متفقها فى الدين، ولكن النزعة الروحية عنده كانت قوية جدا ، حتى أصبح الحزن والخوف من الله من نسيج تكوينه النفسى . . فهو القائل «إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، البصير بذنبه المداوم على عبادة ربه» . .

وقال عنه ابن أبى الحديد:

وكان الحسن البصرى لايراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة وذلك من شدة حزنه وخوفه.

* * *

إن الحسن البصرى الذى توفى سنة ١١٠هـ وأسس مدرسة فى الزهد كانت بداية البلورة ما أطلق عليه فيما بعد التصوف.

والتصوف الذى يعنينا هو التصوف الإسلامى الذى يستمد مقوماته من الكتاب والسنة، ولا نقصد به التصوف الفلسفى الذى استمد بعض روافده من فلسفات دخيلة على الاسلام.

ومن رأى الدكتور جمال الدين الرمادى أن الحسن البصرى لم

يكن متصوفا بالمعنى المعروف، إنما كان زاهدا عابدا، والزهد غير الفقر والتصوف.

ويقول السهروردى فى كتابه (عوارف المعارف):

إن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لايكون الصوفى صوفيا، ولو كان زاهدًا فقيراً.

فالتصوف أعلى من الفقر والزهد، وإن كان منطويا عليهما ومستندا إليهما، لأنهما يمهدان إلى النفحات الروحية، والإشراقات الإلهية، والتصوف علم لبواطن القلوب.

وقد تعددت أقوال الصوفية وتباينت تعريفاتهم فى مفهوم معنى التصوف وتفرقوا فى ذلك شيعا وأحزابا فى القرون المختلفة..

ومن رأيه أيضا: أن الحسن البصرى لم يكن متصوفًا إنما مهد لظهور التصوف بما سلكه من سلوك الزاهد المتبتل وبما تفوه به من حكم كالدر المنثور، والزهر المنضود حتى قال الجنيد المتصوف فى تعريف التصوف:

«هو أن يتمكن الحق منك، ويحييك به وتكون مع الله بلا علاقة».

كما قال أخر:

« هو استرسال النفس مع الله على ما يريد».

وقال سهل:

الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله

لقد كان فى أصحاب الرسول كذلك من لم يحرم نفسه من طيبات الحياة مادام يؤدى حق الله فيها، ومادامت لا تلهيهم عن ذكره وعبادته.

ولقد ورث (أهل الله) كلا الاتجاهين، وأضفى كل فريق على اتجاهه روح فلسفته وتفكيره.

بيد أنهم متفقون على ضرورة الحذر منها، وعدم الثقة بها، فوظيفتها الحقيقية عندهم أنها المكان والزمان اللذان منحهما العبد الصالح ليهيئ من خلالهما لنفسه غدا أبديا خالدا وصالحا عند الله رب العالمين.

أما ما وراء ذلك، فهى أكذوبة كبرى، أو هى على أحسن الفروض والأوصاف.

«يقين لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه!»

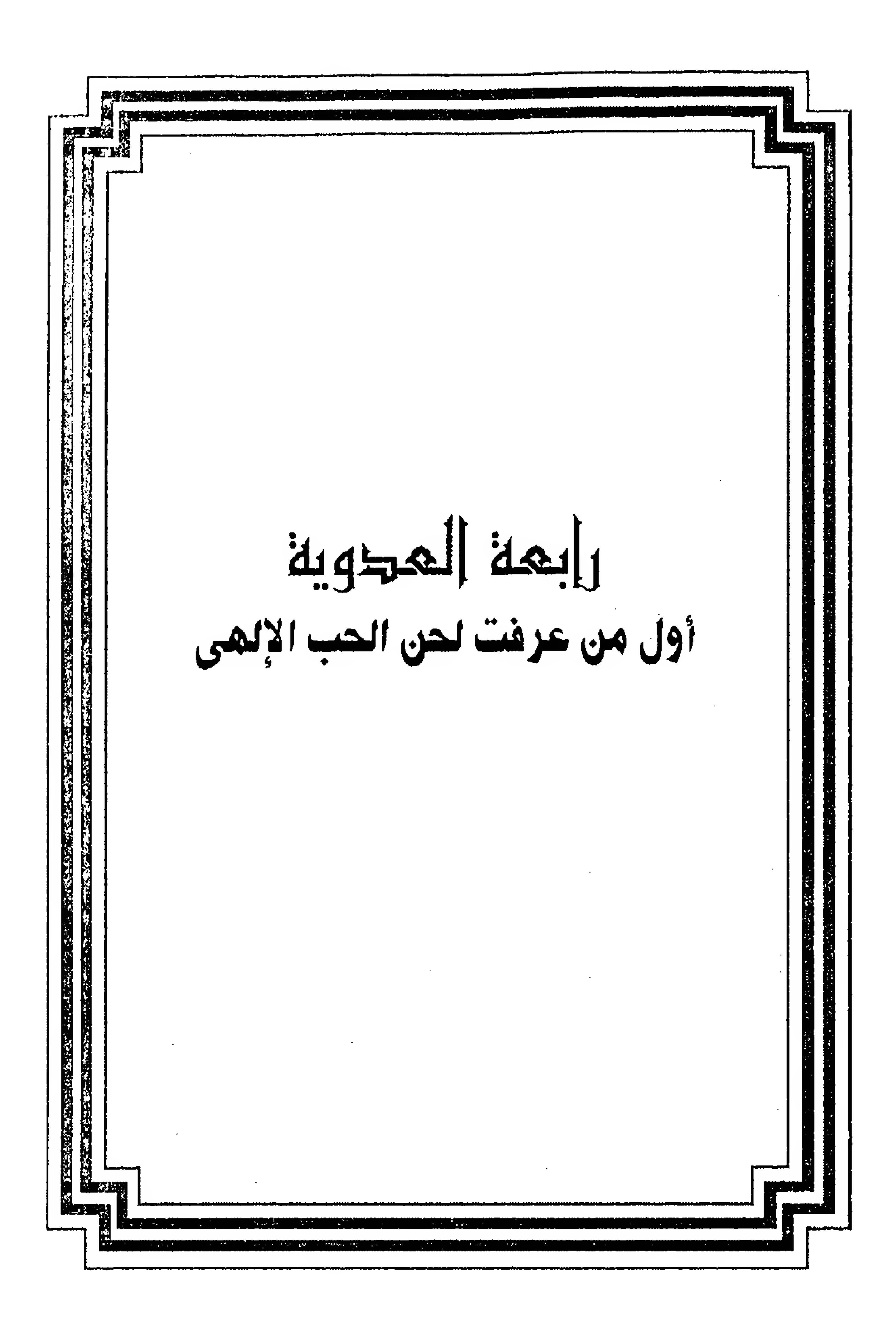
وهم يحذرونها لأنها فى حقيقتها غرور.

* * *

ما أجمل سيرة الحسن البصرى.

وما أروع الحقيقة التى توصل اليها وهو يقتدى برسوله العظيم.. وهو أن حبه لله دفعه إلى العمل على ما يقربه إليه.

وقد كان الإمام أبو حامد الغزالى حصيفا.. صادق الحدس عندما تحدث عن سبب تفاوت الناس فى الحب الإلهى بقوله:



رابعة العدوية

أول من عرفت لحن الحب الإلهى

يروى عن رابعة أنها كانت تصلى الليل كله، فإذا طالع الفجر نامت فى مصلاها نومة خفيفة حتى يسفر الفجر . . ويروى أنها إذا هبت إلى مرقدها قالت:

يانفسى كم تنامين وإلى كم تنامين يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور.

وكان هذا دأبها حتى ماتت.

ونحن نجد عند رابعة أيضا إكثارا من البكاء والحزن شأنها فى هذا شأن بعض من تقدمها من الزهاد، فيذكر الشعرانى عنها فى طبقاته أنها كانت كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا، وكان موضع سجودها كهيئة الماء من كثرة دموعها.

وكانت رابعة معاصرة للزاهد المشهور سفيان الثورى. ويروى أنه قال عندها يوماً: وأحزناه!

فقالت: لا تكذب بل قل: واقلة حزناه. . لو كنت محزونا ما تهيا لك أن تتنفس.

ولرابعة العدوية أقوال مأثورة فى معان كثيرة سيتناولها الصوفية المتأخرون فيما بينهم:

فمن ذلك كلامها فى التواضع إذ تقول:

ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئاً.

وروى الجاحظ فى (البيان والتبيين) أنه قيل لرابعة:

- هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك؟

فقالت :

إن كان شئ فخوفى من أن يُريد علىّ.

ومن ذلك كلامها فى الرياء إذ تقول :

اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم.

فهى لا تحب أن يتظاهر الإنسان بأعماله الحسنة. وكانت رابعة تنهى عن تتبع عيوب الناس لأن السالك إلى الله لابد أن يكون منصرفا إلى تعرف عيوب نفسه، وقد ذكر ابن أبى الحديد (فى شرح نهج البلاغة) عنها أنها كانت تقول :

إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله فتشاغل بها عن ذكر مساوئ غيره..

وكانت رابعة ترى أن توبة العاصى خاضعة أولا وأخيرا لإرادة الله أو بعبارة أخرى للفضل الإلهى، وليست بإرادة الإنسان، فلو شاء الله لتاب على العاصى، فقد قال رجل لرابعة :

إننى أكثر من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب علىّ إن تبت؟

قالت :

لا.. بل لو تاب عليك لتبت.

وفكرة رابعة عن التوبة يمكن أن ترد إلى مصدر قرآنى هو قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨].

ومن أقوالها في معنى الرضا ما أورده الكلاباذى فى كتابه (التعرف) من أن سفيان الثورى قال عند رابعة:

اللهم ارض عني.

فقالت له:

أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض. . وذلك إشارة منها إلى الرضا الذى يجب أن يكون بين العبد وربه مصداقا لقوله تعالى:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد لاحظ بعض الباحثين فى التصوف من المستشرقين مثل (نيكولسون) أن أهمية رابعة العدوية راجعة إلى أنها قد طبعت الزهد الإسلامى بطابع آخر غير هذا الذى رأيناه عند الحسن البصرى.

وهو طابع الخوف، فهى قد أضافت إلى الزهد عنصرا جديدا هو الحب الذى يتخذ منه الإنسان وسيلة إلى مطالعة جمال الله الأزلى. وكذلك ذهب أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحث له عن رابعة العدوية أيضا إلى أنها كانت أول من تغنى فى رياض الصوفية بنغمات الحب الإلهى شعرا ونثرا ولم يكن طريق المحبة معبدا قبلها.

وقد ذكر القشيرى فى رسالته أنها كان تقول فى مناجاتها:

إلهى اتحرق بالنار قلبا يحبك؟!

فهتف بها مرة هاتف:

منزلة الصديقين، حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب..

ولكن الباحثة ترى أن الزواج شرعه الله، وأقرته السنة النبوية الشريفة.. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

«لعن الله المتبتلين من الرجل الذى يقولون لا نتزوج، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتى يقلن لا نتزوج».

وفضل الزواج على العزوبية سنة مؤكدة الأحاديث فيه كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام:

«من رغب عن سنتى فليس منى، وإن من سنتى النكاح ومن أحبنى فليستن بسنتى».

فالزواج إذن رخصة وسنة، حقا إنه ليس فرضا ولكنه سنة مستحبة، وما كان ذلك ليغيب عن رابعة.. خاصة وأن كتب الطبقات قد ذكرت لنا ما يثبت زواج رابعة.. ومن المؤرخين الذين ذكروا أن رابعة قد تزوجت (المناوى فى طبقاته).

فهو القائل عنها:

وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها وتقول له:

ألك حاجة؟

فإن كان له قضى وطره، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح.
وتذكر الباحثة آراء آخرين كابن الجوزى، واليافعى وغيرهما وخرجت من ذلك بقولها:

وهكذا نستطيع أن نقول أن رابعة لم تتبتل- كما قال البعض- بل تزوجت وعاشت فى كنف زوج فترة من الزمن لا يمكن تحديدها بدقة، وإن زوجها مات عنها، وأنها ردت كل من طلب يدها من بعده، ربما لأنها كانت قد تقدمت بها السن فلم يعد لها (من آلة الشهوة) كما قالت لعبد الواحد بن زيد. . والفرض الأرجح، أنها قررت الانقطاع لله عز وجل. . حبيبها الأوحد، الأزلى الأبدى، وأنه آن لها ألا تنشغل بغيره، وخاصة أنها كانت قد وصلت إلى قمة القداسة والطهارة الروحانية، وقد أفعم الحب قلبها وفاض، (وتخلل مسلك الروح منها) فليس فى الوجود كله ما يمكن أن يشغلها عن حبها طرفة عين.

والمؤلفة تميل إلى أنها تزوجت من رباح القيسى وأن رابعة هى زوجة رباح التى أشار إليها الكثير من المؤرخين وأنها بسبب هذه الزيجة قد نسبت إلى القيسيين فاشتهرت «برابعة العدوية القيسية». .

ويرى الدكتور أبو الوفا التقتازانى أستاذ الفلسفة ورئيس الطرق الصوفية الراحل فى كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامى) أنه إلى رابعة العدوية يرجع فى الحقيقة الفضل فى إشاعة لفظ الحب عند من جاء بعدها من الصوفية، بعد أن لم يكن طريق الكلام فى الحب قبلها ممهدا. .

ومن رأيه أيضا أنها لم تكتف بإشاعة لفظ الحب بل هى أول من تعرض بالحليل لمعناه. وبيان ما هو قائم منه على معنى الإخلاص، وما هو قائم منه على طلب الأعواض من الله.

ويرى أيضا أن رابعة العدوية فى الحقيقة نقطة تحول هامة فى الزهد الإسلامى الممهد لظهور الصوفية والتصوف، ومن هنا جاءت شهرتها ووصفها لهذا ابن خلكان قائلاً:

كانت (رابعة) من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة.

ولا أدل على مكانتها أيضا مما نقله ابن هياد المرتدى فى شرحه للحكم العطائية من أنها كانت (إحدى المحبين) ومن أن (سفيان الثورى) مع ما عرف عنه من الزهد والعلم، كان يجلس بين يديها ويقول لها:

علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة.

وكانت تقول له:

نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا..! وكان يعترف لها ويسلم قولها.

ويحدثنا عن خصائص الزهد فى القرنين الأول والثانى بعد أن يحدثنا عن مدارسه فى المدينة والبصرة والكوفة ومصر وخراسان بأنه يتميز بالخصائص التالية أولا: أنه يقوم على أساس فكرة مجانبة الدنيا من أجل الظفر بثواب الآخرة واتقاء عذاب النار، متأثرا فى ذلك بتعاليم القرآن والسنة، وبالظروف السياسية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الإسلامى أنذاك.

ثانيا: أنه زهد ذو طابع عمل، ولم يعن أصحابه بوضع القواعد النظرية له، ومن وسائله العملية العيش فى هدوء وبساطة تامة،

والتقليل من المأكل والمشرب والإكثار من العبادات والنوافل والذكر، مع المبالغة فى الشعور بالخطيئة والخضوع المطلق لمشيئة الله، والتوكل عليه وهو بهذا يهدف إلى غاية أخلاقية.

ثالثا: أنه كان يتخذ دافعا له الخوف من الله، وهو خوف يبعث على العمل الدينى الجاد، على أنه ظهر له دافع آخر فى أواخر القرن الثانى عند رابعة، وهو الحب لله المنزه عن الخوف من عقاب الله والطمع فى ثوابه فى أن معا، وهو يعبر عن إنكار الذات وعن التجرد فى علاقة الإنسان بالله.

رابعاً: أن زهد بعض المتأخرين من الزهاد خصوصا فى خراسان وعند (رابعة) يمكن لما تميز به من تعمق فى التحليل أن يعتبر مرحلة تمهيديه للتصوف وأصحابه، وإن كانوا يقتربون من التصوف ولا يعدون صوفية بالمعنى الدقيق للكلمة.

وإنما يمكن اعتبارهم روادا أوئل لمن يجئ بعدهم من صوفية القرنين الثالث والرابع.

* * *

ونعود الى رابعة العدوية . . ورحلتها مع الحب الإلهى.

لقد عاشت رابعة للحب وبالحب الإلهى. .

وكانت لا تخشى الموت. . لأن الموت هو الوسيلة التى ستجعلها تلتقى بالحبيب. .

وتقول الدكتورة سعاد عبد الرازق فى دراستها الممتازة عن رابعة

وأيامها الأخيرة. . فقد عاشت حتى الثمانين من عمرها أنها كانت تضع أكفانها أمام ناظريها فوق مشجب من قصب فارسى، حتى لا يغيب عن بالها أبدا ذكر الموت نزولا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«أكثروا من ذكر هازم اللذات».

ذكر عن عبدة بنت أبى شوال. . وكانت تخدم رابعة قالت:

«كانت رابعة تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهى فزعة:

يا نفسى لم تنامين؟

وإلى كم تنامين؟

يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور!

وقالت عبدة:

فكان هذا دأبها إلى أن ماتت. . فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت:

يا عبدة لا تؤذنى بموتى أحدا، ولفينى فى جبتى هذه (جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون).

قالت:

فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه.

ولقد ماتت رابعة على زهدها حتى عند وفاتها لم تشأ أن تشغل

أحد ولا تزعج فردا بشأنها ولكن الله جل جلاله أكرمها بأن أرسل إليها طائفة من العباد والصالحين والصالحات التفوا حولها.. ثم أكرمها الكرم الأعظم بأن أرسل إليها من رحمته رسلا بالبشرى، فقد ذكر أنه لما حضرتها الوفاة قالت لأصحابها:

انهضوا واخرجوا، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى.

فنهضوا جميعاً وخرجوا، ولما أوصدوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تنطق بالشهادة، فأجابها صوت مسموع، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر٢٧ : ٣٠].

وهكذا انتقلت نفس رابعة العدوية المطمئنة الراضية المرضية المحبة إلى بارئها، وتسعد فى نعيم ليس يفنى وسعادة مالها من زوال، هانئة بقرب الحبيب فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وقالت عبدة بنت أبى شوال:

رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى، عليها حلة من استبرق خضراء، وخمار من سندس أخضر لم أر شيئا أحسن منه فقلت:

يا رابعة ما فعلت بالجبة التى كفّناك فيها والخمار الصوف؟ قالت:

- إنه والله نُزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه على، وطويت أكفانى.. وختم عليها، ورفعت فى عليين لتكمل لى بها ثوابها يوم القيامة.

قالت عبدة.. فقلت لها:

لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟

فقالت:

وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه!

فقلت:

فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ـ وكانت من كبار العابدات فى البصرة.

فقالت رابعة:

هيهات هيهات.. سبقتنا والله إلى الدرجات العلى.

قالت قلت: وبم؟ وقد كنت عند الناس أكثر منها؟

قالت: لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا وأمست.

فقلت: ما فعل بشر بن منصور؟

فقالت: بخ بخ!..أعطى.. أعطى والله فوق ما كان يأمل.

فقلت: فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل؟

فقالت: عليك بكثرة ذكره، فيوشك أن تغبطى بذلك فى قبرك.. والله أعلم.

وقال بشار بن غالب النجرانى: رأيت رابعة العدوية فى منامى وكنت كثير الدعاء لها، فقالت لى: يا بشار هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير.

قلت: وكيف كذلك؟

قالت: هكذا دعاء المؤمنين الأحياء، إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور المخمرة بمناديل الحرير، ثم أتى به الميت فقيل له: هذه هدية فلان إليك.

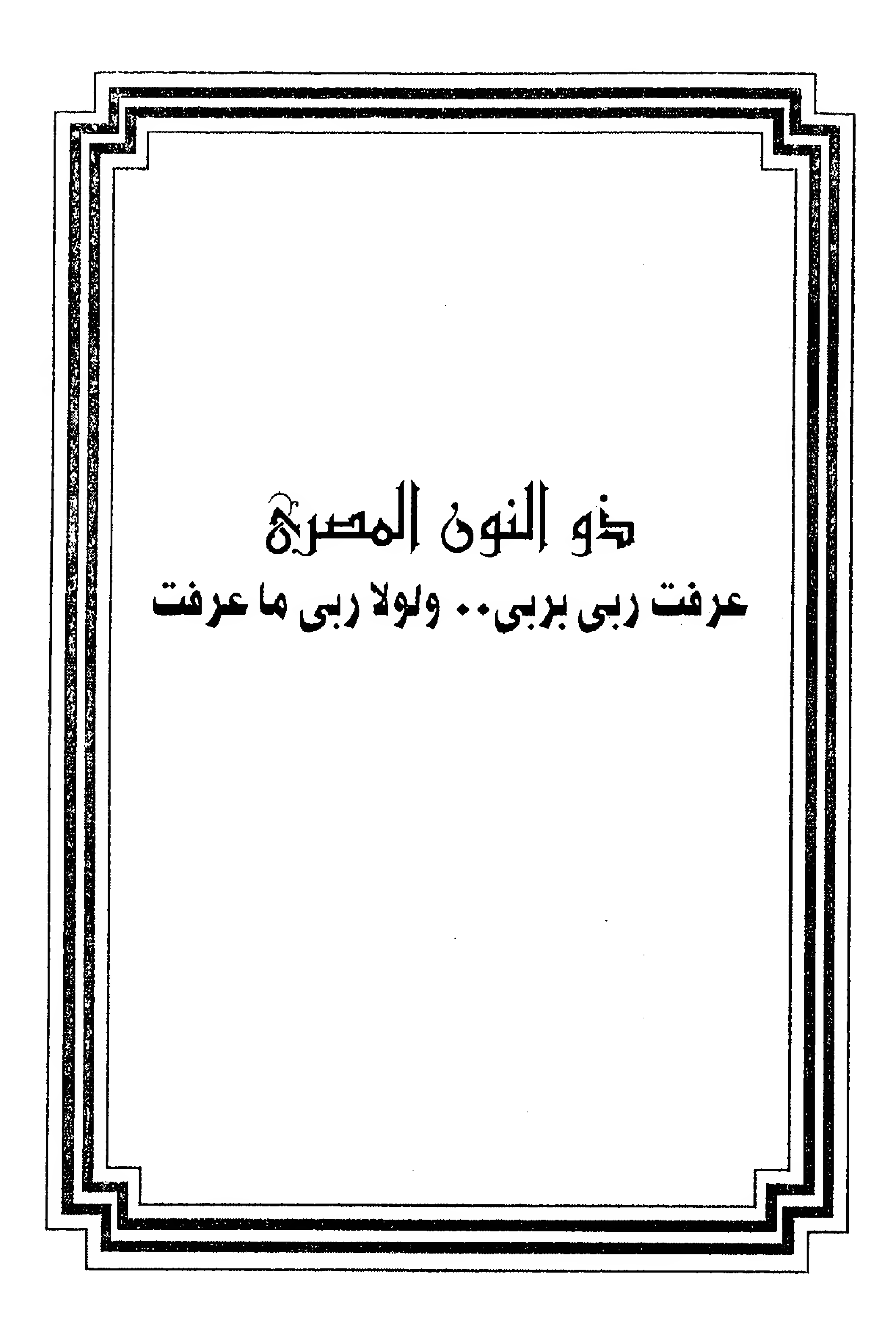
وستظل سيرة رابعة العدوية أعذب سيمفونية فى سمع الزمان.. إنها قصة إنسانة عاشت حياتها، ولكن روحها كانت تحلق وتهفو إلى الحب الإلهى، فرفعها الله إليه بهذا الحب درجات.. جعلتها تسكر بجلال حبه.. وتهفو إلى ما عنده.. فارتفعت بروحها أو رفعتها روحها إلى تلك القمم السامقة من قمم الحب الإلهى.. وظلت سيرتها تتناقلها الأجيال.. سيرة امرأة تطهرت، وارتفعت إلى آفاق الروح.. فأصبحت أجمل سيمفرنية فى سمع الزمان.. وذاكرة التاريخ.

و.. ما أكثر ما قيل عنها من أساطير؟

و.. ما أكثر ما رووا عنها من كرامات.

ولكن سيظل حبها لله.. جل علاه.. هل الذكر الباقى لإنسانة عاشت لله.. وبالله .. وبلغها الله ما تريد وأحبها الناس لحب الله لها.. رضى الله عنها فهى أول عازفة عزفت لحن الحب الإلهى!..

* * *



ذو النون المصري

عرفت ربي بربي.. ولولا ربي ما عرفت

علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته.

وسئل عن السفلة فقال:

من لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه.

ويقول عنه أبو بكر محمد بن عبد الله بن شاذان:

سمعت يوسف بن الحسين يقول حضرت مجلس ذى النون يوما، وجاءه سالم المغربى فقال له:

يا أبا الفضل ما كان سبب توبتك؟

قال: عجب لا تطيقه.

قال: بمعبودك إلا أخبرتنى؟

فقال ذو النون:

أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى، ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان احداهما ذهب والأخرى فضة، وفى احداهما سمسم وفى الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا.. فقلت حسبى قد تبت وأنبت، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل.

ومن أقواله:

لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاما.

وسئل عن التوبة فقال:

توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبة الخاص تكون من الغفلة.

وهذا النهج الذى سار عليه ذو النون المصرى هو نفس النهج الذى سار عليه صوفية الإسلام الذين تمسكوا بالكتاب والسنة.. وعدم الخروج عن الإطار الإسلامى الصحيح.. فهم يرون إن عزة الإنسان تتم بكمال العبودية لله ومن هنا نرى أحدهم وهو إبراهيم ابن أدهم، يصف درجة الصالحين التى يتوق إليها أهل الله:

أعلم إنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات:

أولاها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة.

والثانية: تغلق باب العز وتفتح باب الذل.

والثالثة: تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

والخامسة: تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.

والسادسة: تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

ورغم أن ذا النون المصرى حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الشريعة، وتفقه فى الدين، وألم بالعلوم التى سادت عصره، إلا أنه اشتهر بالصوفية.

وقد بلغ من منزلة الرجل فى قلوب معاصريه أن الصوفية فى عصره كانوا يرجعون إليه، عندما يذهب إلى بيت الله الحرام، ولم

يكن لأحد منهم أن يجرؤ إلى الحديث فى شأن من شئون الدين فى حضرته . . !

والذى يدرس حياة الرجل وتصوفه ومواقفه مع الناس، يرى إنسانا زاهدا فى الدنيا . . آملا فيما عند الله . . لايهم ما فى الدنيا من زخارف ومتع . . إنما كل همه أن يتعبد حتى تفيض على قلبه من الإشراقات ماتتضاءل أمامه كل نعمة من نعيم الدنيا ، وكل متع من متع الحياة .

فالحياة ليست فى امتلاك المال . . ولكن فى امتلاكك أنت لقيادة نفسك ، وتطويعها لحب الله وعبادته .

ونورد نصين . . عبارة عن ابتهالات كان يبتهل بها الرجل إلى خالقه . . يتضح فيها عمق الرؤية وشفافيته أو على حد تعبير الدكتور محمد كمال جعفر الذى أورد هذين النصين فى كتاب (رحلة بين العقل والوجدان) أن الصوفى إلى الناس قد لا يكشف عن مدى عمقه أو مقامه من الحياة الروحية، لأنه قد يراعى مستوى الناس، وبخاصة إذا كانوا كثرة .

أما حديثه إلى خاصته أو بالأحرى حديثه إلى ربه فيصور خلاصة رؤاه، ولب شعوره، وغاية بصره وعلمه فى هذا الميدان الروحى الرحيب ، وهذا الميدان الذى يزداد سعة بسعة فضل الله (والله واسع عليم) .

ويتجلى ذلك فيما نورده من بعض هذه الابتهالات التى يجب أن

يتزود منها كل مسلم، وأن يقدرها كل أديب، ومن هذه الابتهالات قوله:

«إلهى وسيلتى إليك نعمك عليَّ، وشفيعى إليك إحسانك إليَّ، إلهى أدعوك فى الملأ كما تُدعى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تُدعى الأحباب.

أقول فى الملأ:

يا إلهى . .

وأقول فى الخلا:

يا حبيبى . .

أرغب إليك، وأشهد لك بالربوبية، مقرا بأنك ربى، وإليك مردى، ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئا مذكورا، وخلقتنى من تراب ثم اسكنتنى الأصلاب، ونقلتنى إلى الأرحام، ثم أنشأت خلقى من عن يمينى، ثم اسكنتنى فى ظلمات ثلاث بين دم ولحم ملتاث، وكونتنى فى غير صورة الإناث، ثم نشرتنى إلى الدنيا تاما سويا، وحفظتنى فى المهد طفلا صغيرا صبيا، ورزقتنى من الغذاء لبنا سريا، وكفلتنى حجور الأمهات، وأسكنت قلوبهم رقة وشفقة لى وشفقة على، وربيتنى بأحسن تربية، ودبرتنى بأحسن تدبير، وكلأتنى من طوارق الجن، وسلمتنى من شياطين الإنس، وصنتنى من زيادة فى بدنى تشيننى، ومن نقص يعيبنى، فتباركت ربى وتعاليت يا رحيم . .

فلما استهللت بالكلام أتممت على سوابغ الأنعام، وأنبتني زائدا في كل عام، تعاليت يا ذا الجلال والإكرام، حتى إذا ملكتني شأني، وشددت أركاني أكملت لي عقلي، وأزلت حجاب الغفلة عن قلبي، والهمتني النظر في عجيب صنائعك، وبدائع عجائبك، ورفعت وأوضحت لي حجتك، ودللتني على نفسك، وعرفتني ما جاء به رسلك، ورزقتني من أنواع المعاش، وصنوف الرياش بمنك العظيم، وإحسانك القديم، وجعلتني سويا، ثم لم ترض لي بنعمة واحدة دون أن أتممت على جميع النعم، وصرفت عني كل بلوى، وأعلمتني الفجور لأجتنبه، والتقوى لاقترفها، إذا دعوتك أجبتني، وإن سألتك أعطيتني، وإن حمدتك شكرتني، وإن شكرتك زدتني.

إلهي: فأي نعم أحصي عددا؟

وأي عطائك أقوم بشكره؟

أما أسبغت عليَّ من النعماء أو صرفت عني الضراء؟

إلهي:

أشهد لك بما شهد لك باطني وظاهري وأركاني.

إلهي:

أني لا أطيق إحصاء نعمك، فكيف أطيق شكرك عليها.

وقد قلت وقولك الحق:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

(فله الحمد فى الأولى والآخرة).

وهنا نرى الفرق بين النظرة الفقهية أو الدنيوية القريبة التى ينظرها الفقيه أو المتدين العادى الذى إذا سألته عن وسيلة القرب إلى الله قال على الفور إنها (العمل الصالح) مبلغ علمه. بل هو ـ للإنصاف ـ واجبه ليحمل الناس على أداء الأعمال، نرى الفرق بين النظرة السابقة وبين نظرة ذو النون العميقة التى ترجع الأمر كله إلى فضل الله، وهذا هو قمة الأدب الإسلامى، وليس فى هذه النظرة ما فى نظرة هؤلاء الذين يرجعون الأمر كله إلى الله لغاية خبيئة، وهى التعلل بقدر الله لإتيان المعاصى، وارتكاب الموبقات، لأن المقام الذى يتحدث فيه ذو النون مقام الولاء والمحبة والأخلاص والحمد، وهذا لا يكون إلا فى الطاعات، وأوجه الكمالات، ويدل على ذلك دلالة واضحة قول ذى النون بعد ذلك مباشرة:

«إلهى: أدعوك فى الملأ كما تدعى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تدعى الأحباب. أقول فى الخلا يا إلهى، وأقول فى الملأ يا حبيبى» وهذا ينبئ بالحكمة التى يتمتع بها المؤمن الصادق فلا يكون فتنة لإخوانه، أو سببا فى أن يشق عليهم فيتحدث أمامهم بما لا يفهمون أو بما قد يسيئون فهمه.

فمن يدرى؟

لعله لو قال على الملأ مخاطبا الله: يا حبيبى. لهاجمه الناس وظنوا به الظنون، ما أكثر ألسنة السوء التى ركبت على مخازن من

كل شئ بالعقل، ومع ما تسمعه اليوم من ضرورة الأخذ بالعقل، فهو الوسيلة إلى التقدم، وهو الوسيلة إلى المعرفة والإدراك، وبالتالى فهو الوسيلة إلى معرفة حقائق الأمور.

ومع الاعتزاز بالعقل..

ومع اعترافنا بدوره فى صنع الحياة..

ومع إدراكنا أن القرآن الكريم يحث على النظر فى الكون وما فيه من مظاهر القدرة الإلهية، والأخذ بالأسباب لمعرفة هذا الكون وأسراره، إلا أن العقل يقف عاجزا متخاذلا أمام أسرار الغيب.

نعم إن العقل يمكن من خلال طبيعته أن يكون العلم الذى يقرأ ويستوعب ويربط الأسباب بالمسببات، أن يدرس المادة وطبيعتها.. ويصل إلى النتائج التى تؤدى إلى تقدم الحضارة وازدهارها.. فهذا هو دوره فى مجال المعرفة الحسية.

ولكن من الصعب أن نعرف الأمور الغيبية عن طريق العقل ولكن يمكن معرفتها عن طريق الوحى الذى يخبرنا بما وراء المادة.. ومن أجل هذا فقد أخفقت الفلسفة وعجزت عن تفسير ما وراء الطبيعة.

فالعقل له مجالاته وميادينه.

كما أن للقلب مجالاته أيضا وميادينه.

فإذا كنا ندرك أن الله موجود ـ بالعقل ـ لأن لكل صنعة خالق

لها، والله خالق هذا الكون، فإننا ندرك بالقلب بعضا من المعرفة التى يبثها الله سبحانه وتعالى فى قلوب عباده الصالحين.

أو على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود وهو يحدثنا فى كتابه (الفلسفة والحقيقة) ويستعرض الجو الفلسفى فى الإسلام، بأن الخصم الذى كانت لكتاباته شهرة لا حد لها وتأثير عظيم هو حجة الإسلام الإمام الغزالى، صاحب كتاب (تهافت الفلاسفة) وكلمة (تهافت) تعنى السقوط والانهيار.

ويقول الدكتور عبد الحليم: ولكننا نتساءل الآن : لماذا كان المحدثون وكثير غيرهم خصوما للفلاسفة، وما حكمتهم فى ذلك؟

ويجيب:

إن موقفهم من الوضوح بمكان، وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين.

إن الدين: إلهيات وأخلاق تستند إلى الوحى، والوحى معصوم.

والفلسفة: إلهيات وأخلاق تستند إلى العقل، والعقل يخطئ ويصيب، وهو حينما يخطئ لا يعلم يقينا أنه أخطأ، وحين يصيب لا يعلم يقينا أنه أصاب!

ويقولون: أو لسان حالهم يقول :

لقد ضمن الله لنا العصمة فى الوحى، ولم يضمن لنا العصمة فى الآراء العقلية.

ومن هنا تراه فى احدى ابتهالاته المليئة بجمال العبق الروحى قوله:

«إن لله عبادا ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته، وهيج أرواحهم بالشوق إلى رؤيته، فسبحان من شوق إليه أنفسهم، وأدنى منه هممهم، وصفت له صدورهم، سبحان موفقهم ومؤنس وحشتهم وطبيب أسقامهم.

إلهى:

لك تواضعت أبدانهم منك إلى الزيادة.. انبسطت أيديهم ما طيبت به عيشتهم، وأدمت به نعيمهم، فأذقتهم من حلاوة الفهم عنك ففتحت لهم أبواب سماواتك، وأبحت لهم الجواز فى ملكوتك، بك أنسيت محبة المحبين، وعليك معول شوق المشتاقين، وإليك حنت قلوب العارفين، وبك أنست قلوب الصادقين، وعليك علقت رهبة الخائفين، وبك استجارت أفئدة المقصرين، قد بسطت الراحة من فتورهم، وقل طمع الغفلة فيهم، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة، لا يعنيهم ولا يفترون عن التعب والسهر.. يناجونه بألسنتهم، ويتضرعون إليه بمسكنتهم.. يسألونه العفو عن زلاتهم، والصفح عما وقع الخطأ به فى أعمالهم.. منهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموه خدمة الأبرار الذين تدفقت قلوبهم ببره، وعاملوه بخالص من سره حتى خفيت أعمالهم على الحفظة فوقع بهم ما أملوه من عقوق، ووصلوا بها إلى ما أرادوا من محبته، والله إنهم الزهاد والسادة من العباد الذين حملوا أثقال الزمان، فلم يألموا

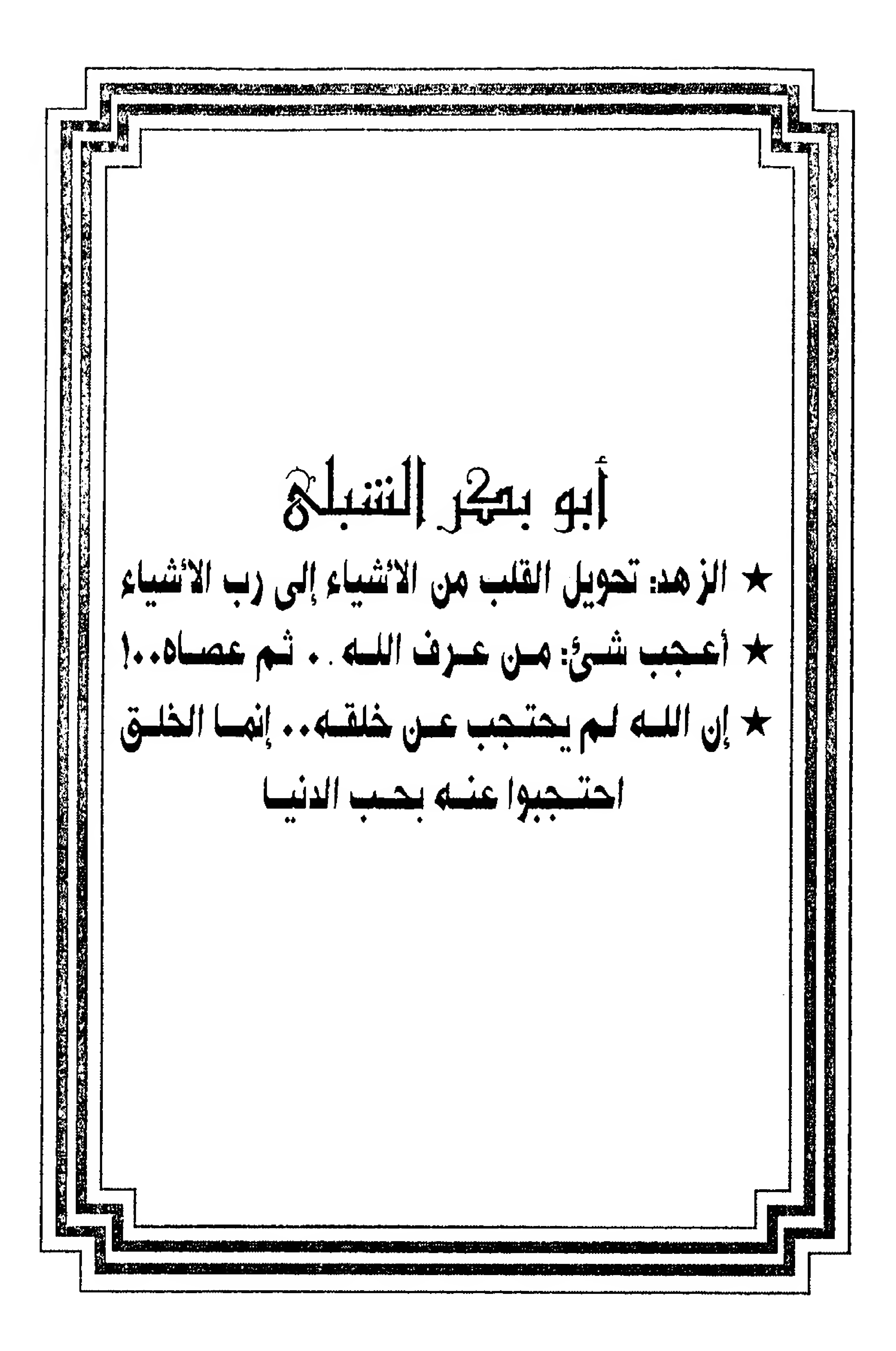
بحملها، ووقفوا فى مواطن الامتحان فلم تزل أقدامهم عن مواضعها، حتى مال بهم الدهر، وهانت عليهم المصائب، وذهبوا بالصدق والإخلاص عن الدنيا».

إلى آخر هذا الدعاء الرائع الذى ينم عن نفس مطمئنة بذكر الله وحبه وإيثار ما عنده. فعاشوا حياتهم كضيوف على دنيانا وتركوا من بعدهم هذا التراث الجميل ، الموشى بجمال الروح وصدق الإخلاص وجمال الاعتماد على الله.

إن الحديث عن هذا الصوفى المصرى، هو حديث عن ألق الروح، وجمال الوجدان، وطهارة الباطن وعفة الظاهر.

إنه صورة للمؤمن المتمسك بدينه لا يحيد فى توجهه إلى الله، والعبادة له، والإخلاص لدينه عن الكتاب والسنة.. فعاش فى ضمير التاريخ وبقى تراثه يرمز لكل ما هو جدير بالاحترام والتقدير.

* * *



أبو بكر الشبلي

★ الزهد: تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء

★ أعجب شئ: من عرف الله.. ثم عصاه..!

★ إن الله لم يحتجب عن خلقه.. إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا

كان أبو بكر الشبلى من أزهد رجال عصره. وهذا الزهد ليس نابعاً من أنه نشا فى بيئة فقيرة، وبالتالى تكيف على أوضاعها، ثم اتجه إلى التصوف فأصبح الزهد طريقا إلى ورعه وتقواه، ولكنه نشأ فى أسرة ثرية، فوالده كان حاجب الحجاب للموفق. . أى أنه نشا فى ظل الخلافة كما أن خاله كان أمير الأمراء بالاسكندرية.

وقد نشأ فى العراق بـ(سر من رأى) وإن كان خرسانى الأصل. . والبعض يقول أنه من أصل مصرى، مهما يكن من شئ. . فالرجل الذى تثقف بثقافة عصره، بجانب تعمقه فى دراسة الشرع. . فقد حفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وقد تولى ولاية (دوماند) فى الرى، وبعض الرواة يرى أنه كان حاجبا للموفق.

والذين قالوا عنه أنه كان مصريا. . استندوا إلى أنه كان مالكى المذهب، ولم يكن هذا المذهب منتشرا فى العراق، لما كان بين الإمام مالك والدولة العباسية. . ولأن الدولة الأموية فى الأندلس كانت تعتنق مذهب الإمام مالك.

مهما يكن من أمر. . ومهما كان الاختلاف حول أصله. . فإنه كان إنسانا مرموقا فى وظيفته. . وأنه قد تصوف وأصبح من أعلام الصوفية. . (لتقيده وورعه وزهده) وحبه الشديد لله. . حتى قال عنه الإمام الجنيد «لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم (يقصد الصوفية) الشبلى».

وأبو بكر الشبلى هو الذى تحدث عن القدوة بالصحابة، على أساس الحديث الشريف:

«أصحابى كالنجوم بايهم اهتديتم اقتديتم».

فقال:

من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبو بكر.

ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر.

ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان.

ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علىٌّ.

وكل علم لا يؤدى إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

ومن أقواله الشهيرة:

إن الله تعالى موجود عند الناظرين فى صنعه، مفقود عند الناظرين فى ذاته.

* * *

ولكن لماذا اتجه الرجل إلى الزهد والتصوف وهو الذى نشأ وتربى فى جو من الثراء والجاه؟

ما هى الأسباب التى جعلته من أزهد الناس، فأعرض عن الدنيا وهى التى كانت مقبلة عليه؟

وأدار ظهره لكل مظاهر الترف وهو الذى كان يمكنه أن يعيش حياة الترف والثراء، ويتمتع بالجاه والسلطة بحكم كونه من طبقة الحكام، وقريبا من بلاط الخلافة؟

لقد عرف أحد شيوخ الطريقة (خير النساج).. وتأثر بمواعظه ومن هنا فقد آثر أن يسير على نفس نهج شيخه.

واستقام الشبلى فى قلبه وروحه وشعوره وجوارحه، وكان يتأنى ـ وقد وصل ـ أن يجرى وراء المظاهر . . إنه يريد أن يتفرغ للدعوة إلى الله فى نفسه حتى تتزكى، وفى المجتمع حتى يستقيم ومن أجل هذه العناية النبيلة قام بأمرين:

١- أما الأمر الأول فهو أنه رجع إلى البلدة التى كان واليا عليها وقال لأهلها:

أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولانى بلدتكم هذه فأجعلونى فى حل، ولكنهم اعتقدوا فيما يبدو أن الموفق أصبح غاضبا عليه، فما كان يتأتى فى نظرهم أن يترك أحد الولاية باختياره، وأحبوا أن يكافئوه بشئ، فجمعوا له مال وهدايا:

«وجهدوا أن يقبل منها شيئا فأبى»

وذهبت الإمارة وذهب معها كل ما يحيط بها، وما يكمن فيها من مفاسد وسيئات، وتحلل الشبلى بذلك مما كان ينوء به من مظاهر الدنيا.

٢- أما الأمر الثانى فهو ما يعبر عنه صاحب الوفيات وغيره بقوله:

«ومجاهداته فى أول أثره فوق الحد».

وتغيرت حالة الشبلى رأسا على عقب: لقد تغيرت فى الأصدقاء، وكان أصدقاؤه من حاشية الموفق، ومن الأثرياء وأصحاب الجاه، ولكنه بعد التوبة صحب الشيخ (أبا القاسم الجنيد) ومن فى عصره من الصلحاء ومن فى طبقة الجنيد.

* * *

أيها الخليفة إنك مخلوق ولا ترضى أن يساء الأدب مع خلقتك، وتقديرك لها معلوم، وقد خلع على الله خلعة من محبته ومعرفته ومن المحال أن يرضى باستعمالها منديلا فى خدمة المخلوقين.

* * *

لقد سلك إذن أبو بكر الشبلى طريق الصوفية، والصوفية يقول عنها المؤرخ الكبير ابن خلدون:

«إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها وما يقبل عليه الجمهور من مال وجاه ثم الانفراد عن الخلق بالخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما فى الصحابة والتابعين من السلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة والتقرب إلى الله باسم الصوفية أو المتصوفة».

ويقول الإمام القشيرى عنه فى الرسالة القشيرية إنه بغدادى المولد والمنشأ وأصله من (أسرو وشنة) صحب الجنيد ومن فى عصره، وكان شيخ وقته حالا وظرفا وعلما، مالكى المذهب، عاش سبعا وثمانين سنة ومات سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة، وقبره ببغداد، لما تاب الشبلى فى مجلس (خير النساج) أتى دماوند وقال: كنت والى بلدكم فاجعلونى فى حل. وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحد.

وملخص ما قاله عنه الإمام القشيرى.. إنه كان يقول فى آخر أيامه:

عمل بالكتاب والسنة . . بإقامة الحلال . . والبعد عن الحرام .

والرسول العظيم عليه الصلاة والسلام يقول :

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

ويورد لنا الدكتور عبدالحليم محمود عن الحب عند الشبلى وأن الصوفية يقتدون بالشريعة وتصرفات الرسول .

يقول الشبلى :

«إن من قلت همته، ضعفت محبته»

فمع الهمة إذن صعودا وهبوطا تكون المحبة صعودا وهبوطا، ولقد جلس عنده جمع من المريدين، فوجدهم فى غفلة لا يذكرون فقال فى حزن :

كفى حزنا بالواله الصب أن يرى

منازل من يهوى معطلة قُفرا!

وسئل مرة عن أعجب شئ قال :

من عرف الله ثم عصاه . .

ولا يسر المحب شئ أكثر من موافقة من يحب .

قال أبو القاسم عبد الله بن على البصرى : قال رجل للشبلى :

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟

قال :

إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته . . وأنشد :

أسر بمهلكى فيه لأنى أسر بما يسر الآلف جدا

ولو سئلت عظامى عن بلاها

لانكرت البلى وسمعت جحدا

ولو أخرجت من شقى لنادى

لهيب الشوق بى يسأله ردا.

ولا بد للمحب من الأدب الكامل فى القول فضلاً عن السلوك.

الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب!

* * *

ويلخص شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى آراء أبو بكر الشبلى فيقسمها إلى قسمين:

- آراؤه ذات المذاق الصوفى الخاصة ببعض مسائل الدين.

- آراؤه فى التصوف وما يتبع التصوف من زهد أو توكل أو غيرها.

وعن القسم الأول يحدثنا عن عصره وكيف شاعت بدعة البحث عن الله تعالى، وشاعت فكرة إثبات وجود الله. وكان موقف الصوفية فى هذا هو موقف الفطرة السليمة الصادقة، والفطرة السليمة الصادقة ترى الله فى الأنفس وفى الآفاق، إنها ترى الله فى آياته، فى نعمه التى لا تحصى فى كل شئ فى الوجود.. ولقد سأل بُكيرٌ ـ تلميذ الشبلى قائلاً:

يا أستاذ. أين أبغيه؟

وسئل عن قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

فقال: **كل ما دون الله لغو.**

أما عن آرائه فى المحيط الصوفى فلخص ما قاله الإمام السهروردى فهو يرى أن التصوف لا ينفصل عن الشرع، وأن الصوفية قوم محبون، والمحب يطيع من أحب.

وكان يحذر مريديه من مخالفة الشرع ويقول **«لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن».**

ويروى أن أحدهم رآه فى المنام فسأله:

يا أبا بكر من أسعد أصحابك بصحبتك؟

فقال:

أعظمهم لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله، وأعرفهم بنقصانه وأكثرهم تعظيمًا لما عظم الله من حرمة عباده.

وكان يرى أيضا أنه لابد من الاجتهاد والمجاهدة لكنهما لا يوصلان إلى شئ من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد، وإنما هى مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة وهداهم لما أحبوه.

* * *

وقد كان الشبلى شاعرا مجيدا.. ورغم قلة شعره إلا أن شعره كان يمتاز بما يمتاز به الشعر الصوفى من صدق ورقة وشفافية.. ومن أجمل أشعاره تلك الأبيات الجميلة التى قالها وهو يستشف أعماق الإنسان، وتيهه فى هذه الدنيا التى لا تدوم لأحد.. فليس القبور التى يقصدها عندما يتحدث عنها هى تلك التى تضم رفات الإنسان بعد الرحيل، ولكنه يرى هذه القبور هى التى يحملها الإنسان بين طياته.. فلا يعرف حقيقة نفسه اللاهية عن الله.. إنه يقول:

أقلل ما بى فيك وهو كثير

وازجر دمعى فيك وهو غزير

وعندى دموع لو بكيت ببعضها

لفاضت بحور بعدهن بحور

قبور الورى تحت التراب وللهوى

رجال لهم تحت الثياب قبور

سأبكى بأجفان عليك قريحة

وأرنو بألحاظ إليك تشير

ومن أجمل ما قرأت له هذه الأبيات التى يتحدث فيها عن المحبين لله.. إن الحب لله متعة فائقة لا تستطيع الكلمات أن تجسدها.. ولا يستطيع العقل الإنسانى أن يعبر عنها.. ومهما كان التعبير فإنه لا يستطيع أن يصل إلى مستوى ما يحسه المحب من وجد.. إنه يرى المحبين أحياء سواء أكانوا أحياء أم أمواتا:

شهدتك، موجودا بكل مكان

فخاطبت موجودا بغير تكلم

ولاحظت معلوما بغير عيان

* * *

وأبو بكر الشبلى الذى رفض الجاه والسلطان والثروة، وفضل أن يكون واحدا من عباد الله المخلصين، يعمل صالحا، ويجنب الناس آثامه وشروره، ويتجه بكل كيانه المحب إلى الله. . كان الشبلى موضوع اهتمام كل من أرخ له من رجال الصوفية.

يروى عنه أنه ذهب إلى مسجد أبى بكر بن مجاهد وأنه عندما ذهب استقبله أبو بكر واقفا، وعندما سأله أصحابه إنك لم تقم لعلى بن عيسى الوزير وتقوم للشبلى.

حكى لهم السبب فى ذلك، وأنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى النوم فقال له:

- يا أبا بكر إذا كان فى غد سيدخل عليك رجل من أهل الجنة فإذا جاءك فأكرمه؟

قال ابن مجاهد:

فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلا من أهل الجنة.

فقلت: يا رسول الله.. بم استحق الشبلى هذا منك؟

فقال: هذا رجل يصلى كل يوم خمس صلوات، يذكرنى فى إثر كل صلاة ويقرأ:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

أفلا أكرم من يفعل هذا؟

* * *

وظل الرجل يعيش حياته محبا لله.. زاهدا فى دنياه.. موقنا أن ما عند الله خير وأبقى.

وكان لابد أن يمضى إلى رحاب ربه كما يمضى كل الناس.. وكان لابد لشمس حياته أن تغرب كما سيغرب كل حى.. لتشرق فى عالم خالد لا يفنى.

رحل بعد أن عاش على الأرض ٨٧ سنة، ومات سنة ٣٣٤هـ.

ويروى الرواة.. والذين درسوا سيرة حياته. أنه فى الليلة الأخيرة فى حياته كان يردد:

كل بيت أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا



الحارث بن أسد المحاسبي

إنه واحد من أقطاب الصوفية.

وإذا كنا لا نعرف بالضبط يوم مولده إلا أن الباحثون والدارسون قالوا عنه أنه ولد فى البصرة، وعاش فى بغداد، وأن مولده كان على الأرجح فى عام ١٦٥ للهجرة (٨٧١م) وتوفى عام ٢٤٣هـ (٨٥٧م)..

وحياة هذا الرجل حياة بالغة الثراء.. فقد كان عالما جليلا.. درس الفقه، وتعمق فى شريعة الله، كما درس المذاهب فى عصره، واطلع على ما كان يقول به علماء الكلام من المعتزلة، كما درس كل علوم عصره واستوعبها وفهمها، ولكنه آثر أن يكون طريقه هو طريق الصوفية.. فلم يجنح إلى ما كان يجنح إليه أهل الكلام ولكنه كان يرى أن الإسلام هو دين الفطرة.. دين النقاء.. وأنه لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء.

وإذا كان الإسلام يدعو إلى التوحيد أولا، ثم فرض فروضا، وأقام نوافل، فإن على المؤمن أن يتمسك بهذه الفروض، وأن يقوم النوافل حتى يقترب من الله، وهذا يتأتى أيضا بالتمسك بالأخلاق النبيلة، والبعد عن الأخلاق الذميمة.. وهذا يحدث بالمجاهدة.. مجاهدة النفس وحثها على التطبع بقيم الإسلام، وقد سمى بالمحاسبى لكثرة ما كان يحاسب نفسه!

وقد كان للحارث بن أسد العديد من المؤلفات الهامة، بعضها مازال موجودا، وبعضها لم يعرف عنها الباحثون شيئا، وإن كانوا

يعرفون عنها بعض مضمونها من خلال تناوله فى كتبه الأخرى لهذه المؤلفات التى تربو عن المئتين. . ومن أشهر كتبه (الرعاية) الذى تأثر به الإمام الغزالى عندما كتب (إحياء علوم الدين).

ويرى الدكتور التفتازانى أن للمحاسبى كلام فى مقامات الطريق إلى الله وأحواله فيه عمق التحليل، فمن ذلك ماروواه العطار فى (تذكرة الأولياء):

- أساس العبادة الورع، وأساس الورع التقوى، وأساس التقوى محاسبة النفس، وأساس المحاسبة الخوف والرجاء، والخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد، وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء، وتذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار.

وهكذا يشيد المحاسبى بالعقل من حيث أنه قادر على إدراك حكم الأوامر والنواهى، ولكن لابد أن يقترن بالتخلق وهذا ـ فيما يبدو ـ معنى قوله:

«لكل شئ جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر».

ويفرق المحاسبى أيضا بين العلم النظرى بالإيمان، والعلم به مع العمل، كما يفرق بين العمل الظاهر بحركات الجوارح وعمل القلوب، قائلاً:

«العمل بحركات القلوب فى مطالعات الغيوب أشرف من العمل بحركات الجوارح».

وقد كان لكلام المحاسبى فى النفس، والسلوك ومقاماته

ونذكر منهم العلاف المتوفى سنة ٢٢٦هـ، والنظام المتوفى سنة ٢٣١هـ، والجاحظ المتوفى سنة ٢٢٥هـ فى الإلهيات والأدب.. وأبو نواس فى الشعر، والكرخى، والحافى وذو النون فى التصوف.

* * *

فى هذا الجو إذن عاش ومات المحاسبى..

ومن دراسة هذا العصر نجد أن علم الكلام كان قد انتشر فى المجتمع، وقد أيد المعتزلة بعض الخلفاء كالمأمون مثلا.. كما انتشر فيه أهل السنة الذين كانوا ينئون بأنفسهم عن الجدل العقيم فى أمور الدين، ويرون الرجوع إلى الكتاب والسنة دون تأويل.

وكان هناك أهل التصوف الذين يعرفون الله بالبصيرة.. ولا يجرون وراء النظريات الفلسفية التى تفسد القلوب والعقول، وقد كان المحاسبى من الذين وجدوا فى التصوف طريق الخلاص، ولكنه التصوف المستمد من الكتاب والسنة، وليس من روافد بعيدة عن الإسلام.

كان ضد الرياء.. وضد النفاق.. والثواب عنده هو ما يصدر عن نية خالصة..

وكان دائما يردد الحديث الشريف:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

كان يرى أن الإسلام بسيط جدا.. ليس فى حاجة إلى هذه التعقيدات التى يحاول الفلاسفة وعلماء الكلام أن يلصقوها به.. لقد عرفه الصحابة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، دينا بسيطاً لاغموض فيه.

الأيات الكريمة فى القرآن الكريم توضحه بسهولة ويسر:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

ما يجب أن يعرفه الناس فى أمور معتقداتهم توضحه مثل هذه الآيات الكريمة:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة ١ ـ٥].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء ١٢٥].

وحديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يبين جوهر العقيدة والعبادة والأخلاق الإسلامية:

الله فى كل حال، ومن كان يسهر الليل فى ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم تطير الكتب فتستقر فى أيدى الناس، إما اليمين منها وإما الشمال، ثم ينصب الميزان، ويتقدم إليه الناس، والملائكة يزنون أعمالهم، فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للمرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم.

وتأتى كائنات من لهب لتسير بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر فى الدنيا، وكيف ارتكب هذا الشر برغم ما أفاضه عليه من نعم، ثم يكون حكم الله له أو عليه .

ولكن على الإنسان قبل دخوله الجنة أو السقوط فى جهنم أن يجتاز شريطا ضيقاً كالسيف قد علق من فوق النار، يمشى عليه حاملا جميع ذنوبه على ظهره، وكل خطوة فوقه ألم رهيب، ولهيب النار يصعد إليه، ويلفح من فوقه، فمن كان ممن حكم عليهم زلت قدمه وسقط فالتهمه الجحيم

وأما الرجل الذى كان خَيِّرًا في دنياه فيمشى على الشريط فى يسر وثقة، ويرى الجنة قبيل الوصول إلى نهاية الشريط . .

وقبل دخول الجنة يغتسل فى عين ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى الشباب، ويتوج بالجمال . . ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل أفات القلوب، فإذا ما أتم ذلك كانت له الجنة التى يعرض المحاسبى لها بالوصف بعد ذلك، ووصفه تجميع لكل العجائب التى يمكن أن تخطر على بال :

فمن أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء فيها مكتملات الجمال.. وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذى يشهده فى هاتيك الحور العين، وهن كثرة يسقين الرجال ما طاب من الشراب، فى كئوس من فضه وذهب حليت باللؤلؤ.

ويرى الدكتور عبد الحليم محمود أن هذا الفصل من كتاب المحاسبى ملفت للنظر بما فيه من تصوير بارع للملذات الجسدية مع الحور، ولا شك أن الموضوع مهيأ للتخيلات الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبى فى رسم اللوحات التى ابتكرها فكره، وصل هنا إلى قمة كماله.. ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العقد من الكتاب.

* * *

وبالطبع فإن هذه الصور الجميلة التى تخيلها الحارث المحاسبى، صورة كونها الخيال الأدبى.. لأن ما يوجد فى العالم الآخر من نعيم أو شقاء.. من جمال وقبح.. إنما كل ذلك من الأمور الغيبية التى يعجز العقل الإنسانى عن تصورها.

صحيح أن الجنة هى النعيم المقيم، والسعادة الأبدية.

وصحيح أيضا أن الجحيم هو الشقاء والتعاسة التى لا يتصورها عقل بشرى.. خاصة عندما يصبح كل شئ يقينا.. الجنة وما فيها من نعيم، وجهنم وما فيها من الشقاء.

ولكن أمور الغيب هذه. . علينا أن نعترف بها، ونترك كنهها وطبيعتها لعلم الله. . لأن الرسول الكريم نفسه يقول لنا : «فيها ما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ومادمنا سوف نرى مالم تره العيون فى الدنيا، ونسمع مالم تسمع الآذن فى الدنيا، وأن فيها ما لم يخطر على البال. . إذن علينا أن نؤمن بنعيم الجنة للذين رضى الله عنهم فأدخلهم فى واسع رحمته، ونؤمن بما سوف يلقاه من غضب الله عليهم من عذاب. . ولكن تصور ما سوف يحدث فهو فوق طاقة البشر، وفوق مدارك العقل الإنسانى، المحدود بحواسة المحدودة. . فالمهم أن نعمل عمل هؤلاء الصالحين من أهل الله، حتى ينطبق علينا ما قاله (إبراهيم النخعى) :

«من أحسن الله صورته، ووسع رزقه، وبوأه منصبا صالحا. . ثم أدى حق الله فى كل هذا وتواضع كان من خاصة أهل الله».

ومن يقرأ المحاسبى أو غيره من الصوفية الكبار، الذين لم يجعلوا الدنيا أكبر همهم. . بل مجرد جسر. . يعبرونه إلى العالم الآخر. . لابد أن يقف طويلا ويتمثل قول أحدهم وهو (إبراهيم التيمى) الذى استطاع أن يقود زمام نفسه، ويلوى عنقها لتعمل الخير وتبتعد عن الشر. .أو كما قال هو :

تمثلت نفسى فى النار، أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من غسلينها. . فقلت يانفسى : أى شئ تشتهين؟

مهما يكن من شئ . .

فقد عاش المحاسبى . . وكانت حياته إثراء للصوفية ودفعة لأفكارهم وشفافية روحهم .

ومات وترك تراثا مازال عطاؤه يتردد عبر القرون إلى الآن . . وسيظل مادام هناك نفوس تطمح إلى عالم النور والشفافية . . عالم الروح .

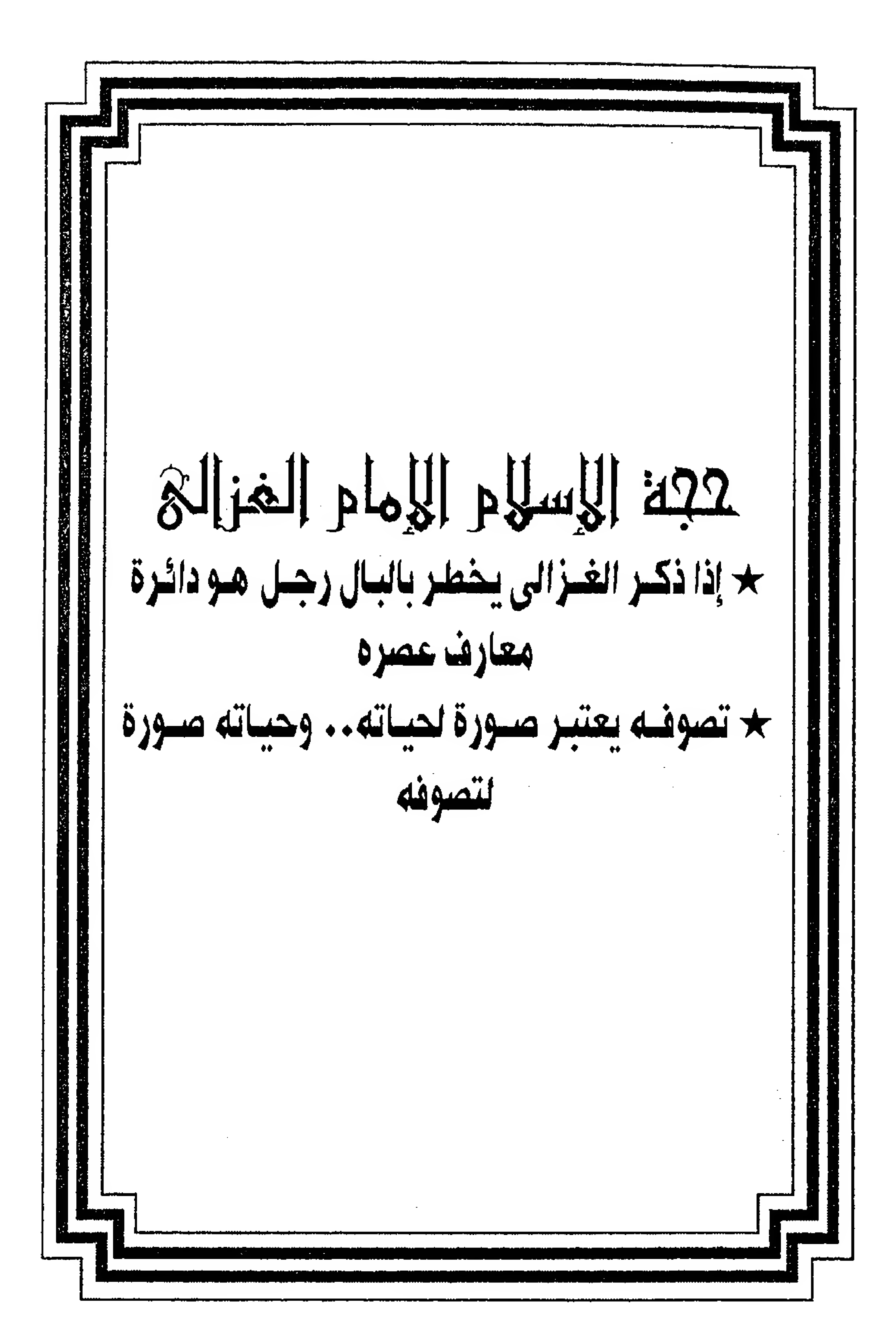
ويروى عنه أنه عندما حضرته الوفاة قال لمن حوله :

إن رأيت ما أحببت تبسمت لكم . .

وإن رأيت مالا أحب وجدتموه على وجهى . .

و . . رأوه . . يبتسم وهو يموت . .

* * *



حجة الإسلام الإمام الغزالي

★ إذا ذكر الغزالى يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره

★ تصوفه يعتبر صورة لحياته.. وحياته صورة لتصوفه

فرقة، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة. . لا أميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، ولا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته،ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا إلا وأتجسس وراءه للتنبه إلى أسباب جرأته فى تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان شبابى، غريزة وفطرة من الله وضعت فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى». .

هذه الكلمات تبرز روح الإمام الغزالى التواقة إلى المعرفة، فحب المعرفة يملك عليه جوانب نفسه. . إنه يريد أن يعرف كل شئ. . ويلم بكل ما كان يجرى فى عصره من فلسفات. وهو العصر الذى امتلأ بفلسفة اليونان، وانبهار البعض بها. . وبفلاسفة اليونان الذين كانوا يحيدون فى (العقل) المرشد نحو تفسير كل ظواهر الحياة. . وإذا كانت هذه الفلسفات وهى تتخذ من العقل مرشدا ودليلاً للمعرفة قد بهرت الناس فى عصره، فلم يجد الإمام الغزالى فيها غضاضة فدرسها ووعيها تماما، ولكنه اعترض على جانب (ما وراء الطبيعة) منها. . فالعقل لا يمكنه أن يدرك ما وراء الحواس ومن هنا بدأ الغزالى هجومه العنيف عليها. .

وقد كان عصر الغزالى (الخامس الهجرى) على حد تعبير الشيخ

فياحجر الشحر حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع . . !

و . . كانت هذه نقطة تحول فى حياة الإمام العظيم، فقد اعتزل الناس، واعتزل الدراسة، وانقطع للعبادة . . يطلب من الله العون على أن يهديه إلى الطريق السليم . . ولم يكن غريبا أن يلجأ الإمام العظيم الى الصوفية، فقد تربى فى كنفها، وعاش بين أحضانها، ودفعه الحنين إلى أريج الروح عندما عصفت بحياته ماديات الحياة . . وفلسفات عصره البعيدة عن روح الإسلام الحنيف . . إنه يتحدث بنفسه عن هذه العزلة فى كتابه (المنقذ من الضلال) فيقول:

«فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من سنة، وأخيرا جاء دور العمل، وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، وقد قفل الله لسانى حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطيبا لقلوب المختلفين إلىَّ فكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا يستطيعها البتة، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج فقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم. ثم لاحظت أعمالى فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من جميع الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم، فإنما أنا معتقل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله

تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنى على شفا جرف هار، وأنى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأصل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها ضد الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل، فلم يبقى من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع، فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن السلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفت إليه ولا يتيسر لك المعاودة، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار».

ويقول الإمام الغزالى أيضا متحدثا عن هذه التجربة التى مر بها:

«ولما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى. . التجأت إلى الله

التجاء المضطر الذى لا حيلة له، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل علىَّ الإعراض عن الجاء والمال والأولاد والصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر فى نفسى السفر إلى الشام حذرا من أن يطّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام، فتلطفت فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا» . .

واشتغل الإمام بعدها بالعبادة فى خلوته حتى اكتشف أنه من خلال حياته الروحية تلك عرف ما لم يكن يعرفه، وألهمه الله المعرفة، وهداه إلى الطريق السليم. . فقد صفت روحه، وشفت نفسه، وعندما التقى بأحد رجال الصوفية (يوسف النساج). . أخذ بيده. . ليسلك طريق الهدى والنور. . ويروى الغزالى كيف اطمأنت روحه الثائرة، وهدأت عندما رأى الله سبحانه وتعالى فى رؤيا منامية. . يعبر عنها بقوله:

«كنت فى مبدأ أمرى مفكرا لأحوال الصالحين، ومقامات العارفين، حتى صحبت شيخى يوسف النساج، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات، فرأيت الله تعالى فى المنام فقال لى: يا أبا حامد، فقلت أو الشيطان يكلمنى؟ قال: لا، بل أنا الله المحيط بجهادتك الست. . ثم قال: يا أبا حامد ذر مساطرك وصاحب أقواما جعلتهم فى الأرض محل نظرى، وهم الذين باعوا الدار بحبى. .

قلت: بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بك؟

قال: قد فعلت، والقاطع بينك وبينهم كشاغلك بحب الدنيا،

فأخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسى» . .

ويواصل الإمام الغزالى حديثه حول هذه الرؤيا العجيبة التى كانت نهاية مطاف راحته النفسية والروحية:

«فاستيقظت من نومى فرحا مسروا، وجئت إلى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه الواحنا فى البداية. بل إن صحبتى ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد، حتى ترى العرش ومن حوله، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار، فتصفوا من الأكدار طبيعتك، وترقى على طور عقلك، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى».

إنى أنا الله رب العالمين

وبدأ طريق التصوف. . ومن خلاله كان يرى أن المعرفة من الله (أنها نور يقذف فى القلب). . .

لقد خرج الإمام الغزالى من مجاهداته إنسانا يؤمن بجلال الروح، وأن طريق الصوفية هو الذى يؤدى الى هذا الطريق الملئ بالأنوار. . وأن الصوفية لابد لكى لا تنحرف عن الجادة أن تتمسك بالكتاب والسنة، وكل خروج عن الكتاب والسنة مروق عن شرع الله الحنيف. . ويصف ذلك فى كتابه(المنقذ من الضلال) بقوله:

«إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم

أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

ثم يقول: وماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها، وأول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله، وأول هذه الطريقة المكاشفات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»..

تهافت الفلاسفة

وكان من الطبيعى بعد أن درس الغزالى الفلسفة دراسة مستفيضة وعرف أسرارها، وفك رموزها، ما كان له أن يقف مكتوف الأيدى أمام من يخوضون فى أمور فوق مدارك العقل، ويحاولون من خلال العقل أن يعرفوا ما وراء الطبيعة، لقد رأى أن ذلك عبث.. وأن الفلاسفة الذين يخوضون فى هذا المجال ينحدرون نحو الزندقة.. ومن هنا فقد حرص على أن يظهر ما عليه هؤلاء الفلاسفة من تهافت.. أو على حد تعبير الأستاذ طه عبد الباقى سرور:

وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى كتاب الإحياء فضلا وسمو منزلة أن تكون درر فرائده فوق ما يتناوله العدد أو أن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره».

وإحياء علوم الدين هو أشهر كتب الإمام الغزالى، ولكن له العديد من المولفات قالوا عنها أنها تصل إلى الثمانين مؤلفا.. ومن أشهرها بعد الإحياء كتابه (مقاصد الفلاسفة)، وكتابه (تهافت الفلاسفة)، والاقتصاد فى الاعتقاد، ومعيار العلم، والمستصفى، والمنقذ من الضلال، وكيمياء السعادة، ومشكاة الأنوار، والمقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى.. وعشرات من الأبحاث الأخرى.. وبعض هذه الكتب ترجم إلى اللاتينية والعبرية، كما ترجمت بعض كتبه إلى الإنجليزية والأسبانية والفرنسية والألمانية.

هذا هو الإمام الغزالى الذى لخصه الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق بقوله:

«إذا ذكر ابن سينا أو الفارابى، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان، وإذا ذكر ابن عربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها، وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى.

لم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته.

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر، والغزالى الفقيه الحر، والغزالى المتكلم إمام أهل السنة وحامى حماها، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالى الفيلسوف الذى ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالى المربى، والغزالى الصوفى الزاهد، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره».

الرحيل

لقد ظل الغزالى يجاهد نفسه مجاهدة قاسية حتى شفت روحه، وقد حج إلى بيت الله الحرام، وأخذ طريقه إلى دمشق حيث اعتكف فى زاوية فى منارة المسجد الأموى.. وكان عزوفا عن مخالطة الناس، وأخذ فى تصنيف كتابه الخالد (إحياء علوم الدين).

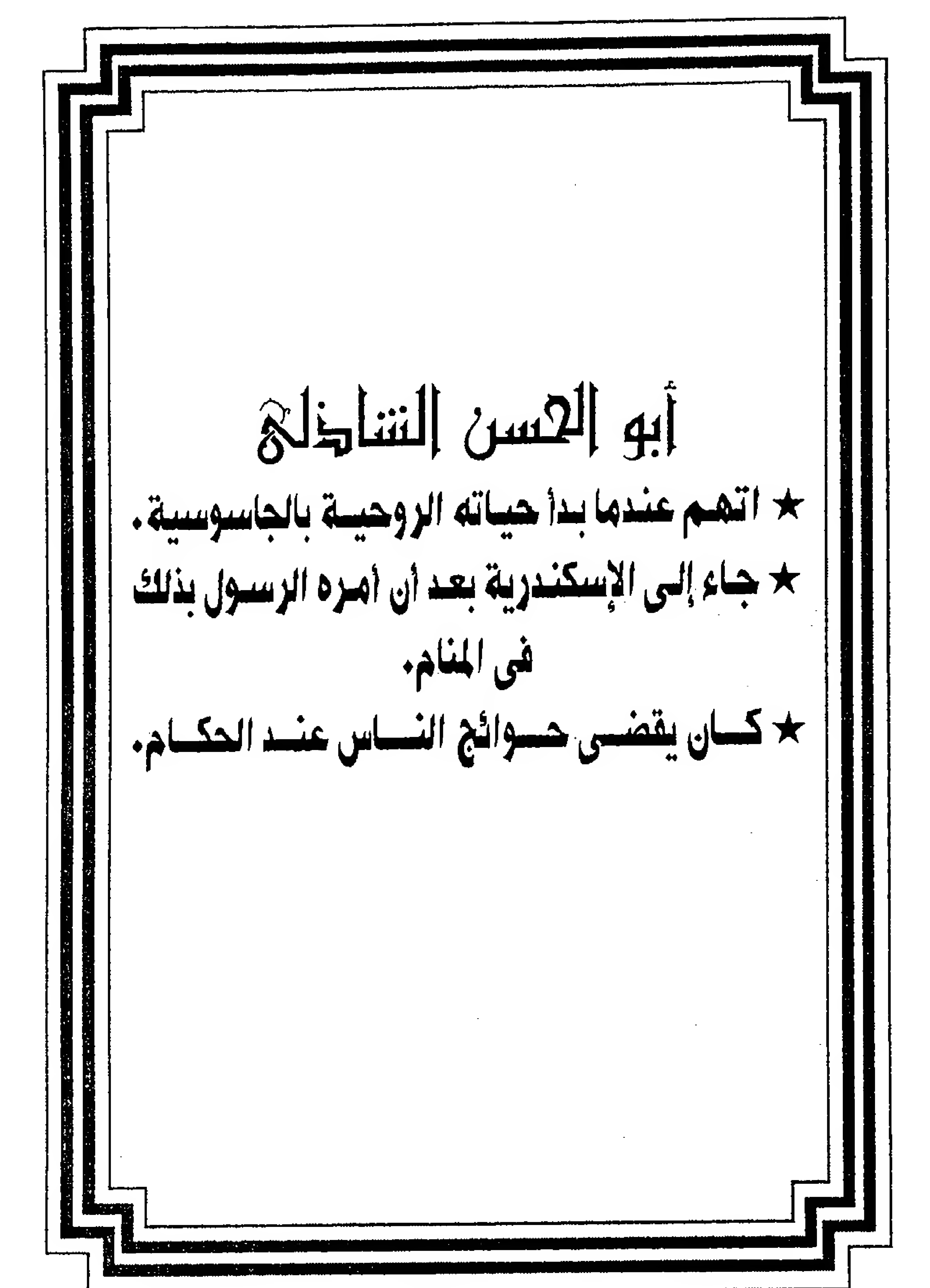
وعرف عنه أنه زار المسجد الأقصى، والاسكندرية ثم عاد إلى وطنه فى خراسان حيث اعتكف واشتغل بالتفكير والعبادة..

ويقول الذين أرخوا له أنه عاد للتدريس فى المدرسة النظامية بعض الوقت، ثم عاد الى طوس.

وفى صباح يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأخرى سنة ٥٠٥هـ توضأ وصلى ثم استقبل القبلة ومات.

وترجع أهمية الغزالى فى التصوف الإسلامى فى رأى الدكتور أبو الوفا التفتازانى إلى عدة أمور أهمها:

أنه أثار بقوة مشكلة الشك واليقين، فلم يجعل المعرفة الدينية



أبو الحسن الشاذلي

★ اتهم عندما بدأ حياته الروحية بالجاسوسية.

★ جاء إلى الإسكندرية بعد أن أمره الرسول بذلك في المنام.

★ كان يقضي حوائج الناس عند الحكام.

وليس له أية صلة بالدسائس والمؤامرات، وبعدها ترك الشاذلى تونس من أجل الحج إلى بيت الله الحرام، وكأن ابن البراء لم يسترح لرأى السلطان فى الشاذلى عندما رفض نصيحته، ولم يقتنع أنه يعمل جاسوسا، فارسل برساله إلى سلطان مصر الملك الكامل بن محمد الأيوبى يحذره فيه من الشاذلى الذى سوف يمر على مصر وهو فى طريقة إلى الحجاز، مما جعل الملك الكامل يصدر أمرًا بالقبض عليه بمجرد وصوله إلى الإسكندرية. . وكانت رسالة البراء قد وصلت إلى ملك مصر قبل قدوم الشاذلى إليها، ولكن سرعان ما ظهرت براءته للمرة الثانية، عندما أمر الملك بأن تعقد مناظرة بين علماء مصر وبين الشاذلى، واكتشفوا أن الرجل بعيدا عن الدسائس والمؤامرات، وأنه من خيرة علماء عصره، وأنه يريد التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، فاعتذر له ملك مصر، وأكرم وفادته، ورجع الرجل مرة ثانية إلى تونس وفاءًا لعهده لسلطانها بالعودة إلى تونس بعد الحج، حيث التقى بتلميذه الذى سيكون له أثر كبير فى نشر تعاليم الإمام الشاذلى، وأنه سوف يكون خليفته فى طريقته التى انتشرت فى مصر عندما قدم مع أستاذه إلى الإسكندرية وهو (أبو العباس المرسى).

وقد كان وصول الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى، وبعض مريديه فى عام ٦٤٢هـ. . حيث بدأ الرجل يلقى دروسه فى مسجد العطارين حيث لفت الأنظار إليه بما لديه من علم، وبما امتاز به بين

الناس بالتقوى والورع والتفرغ للعبادة، وقضاء حوائج الناس عند أصحاب السلطة والنفوذ، فعظم شأنه عند الجميع، وأحبه الجميع . . وأخذوا يحضرون دروسه فى بيته، وفى مسجد العطارين حيث كان يلقى دروسه .

ويقول الذين أرخوا لسيرة حياته أنه جاء إلى الاسكندرية بناء على رؤية رآها . . فقد رأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى منامه يأمره بالتوجه لمصر.

وقد ظل الرجل فى مصر من عام ٦٤٢هـ إلى أن رحل إلى أكرم جوار سنة ٦٥٦هـ . . وهو فى طريقه إلى الحج، حيث مات فى صحراء عيذاب على البحر الأحمر، وهناك دفن . . وهناك مسجده القائم إلى الآن . . حيث أوصى أن يكون خليفته هو أبو العباس المرسى الذى كان قد تزوج من ابنته، وهو من أقرب تلاميذه إلى نفسه.

* * *

ويورد لنا الدكتور عمار النجار فى كتابه (الطرق الصوفية فى مصر) أن أوضح ما فى شخصية الشاذلى معرفتها الحقة بالله.

فيقول الشاذلى فى روعة وجلال:

«اعرف الله وكن كيف شئت».

ولهذا فقد رأينا أبا الحسن يختلف عن بعض أصحاب الطريق، حيث كان يرتدى أحسن الثياب وأجملها.

دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر فلما فرغ الشيخ من كلامه، دنا من الشيخ، وأمسك بملبسه وقال:

ياسيدى، ما عُبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك!

فأمسك الشيخ بملبسه فوجده فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، لباسى يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى، ولباسك يقول: أنا فقير فاعطونى.

ودخل أبو العباس يوما على الشاذلى ، وفى نفسه أن يأكل الخشن، وأن يلبس الخشن فقال له الشيخ:

«يا أبا العباس اعرف الله وكن كيف شئت».

ويقول أبو الحسن:

«يا بنى: بردِّ الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد الله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله».

الحق أن مثل هذه الأمثلة تعكس مزاجين مختلفين فى التصوف:

(أ) العزيمة والتضييق والتشدد.

(ب) السهولة والرخص والانبساط.

من الفريق الأول التسترى والسرى والسقطى.

ومن الفريق الثانى: الجنيد والجيلى عبد القادر والشاذلى.

وقد وردت مثل هذه الثقة مع خلاف فى الحكم فى الرسالة القشيرية واللمع.

ويورد الدكتور عامر النجار قول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود أن النظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر. وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة فى الدنيا فقط، أما الشكر فإنه فضيلة فى الدنيا والآخرة.

ويؤكد هذا المعنى أبو الحسن الشاذلى حين يقول:

«ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا بقيمة الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية».

ويقول تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف ـ ٣٢]

وكان مما يميز شخصية الشاذلى أيضا سعيه للخير ولقضاء مصالح الناس.

يقول ابن عطاء الله السكندرى:

أخبرنى بعض أصحابنا قال:

استشفع طالب الشيخ أبا الحسن إلى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز أن يزاد على مرتبه فذهب الشيخ إليه، فأقبل القاضى تاج الدين وسأله فيما مجيئه؟

قال الشيخ:

من أجل فلان الطالب كى تزيده فى مرتبه عشرة دراهم .

فقال القاضى :

يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا ، وفى المكان الفلانى كذا وكذا . .

فقال له الشيخ :

يا تاج الدين لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها ، فإن الله تعالى لم يقنع المؤمن بالجنة جزاء له حتى زاد النظر إلى وجهه الكريم .

ويقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامى) عن الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى، وخلفه أبو العباس المرسى الذى خلفه تلميذه ابن عطاء الله السكندرى أن تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله، وهم أركان المدرسة الشاذلية، مبتعدا عن تيار مدرسة ابى عربى ومذهبها فى وحدة الوجود فلم يكن واحدا منهم قائلاً بهذا المذهب .

وعلى قدر بعدهم من ابن عربى نجد قربهم من تصوف الغزالى المتقيد بالكتاب والسنة . . وتأثرهم به .

ويكفى هنا أن نشير إلى بعض أقوال الشاذلى والمرسى التى يرويها ابن عطاء الله فى (لطائف المنن) لنبين منزلة الغزالى فى نفوسهم جميعا، وأنهم كانوا يدعون مريديهم إلى الاقتداء به، وانتهاج سنته .

الواجب على الإنسان السوى أن يشارك الناس حياتهم، ويدافع عن وطنه عندما يتعرض للمخاطر، ويعيش للآخرين كما يعيش لنفسه، فلا معنى أن يعيش الإنسان لإثراء ذاته روحيا، والارتفاع بها عما فى الحياة من شرور وآثام .. وبهذه الحجة يبتعد عن دنيا الناس ولا يشارك فيها.. والواقع أن معظم الصوفية لم يعيشوا لأنفسهم فقط ولكنهم كانوا يعيشون بالناس أيضا،.. فهم عندما يدعون إلى أن يعيش الناس حياة الطهر والصفاء، هم فى الواقع يقومون بمهمة إيجابية بانتشال الناس من المعصية إلى التوبة والبعد عن طريق الشرور، كما أن كثيرا منهم خاضوا المعارك فى سبيل أوطانهم، وجاهدوا فى سبيل الله، ودافعوا عن العرض والشرف لكل ما يمس أمن واستقلال وطنهم.

والإمام الشاذلى أحد الذين جاهدوا فى سبيل الله، بل أنه رغم شيخوخته وكف بصره، عندما تعرضت مصر للهجمة الشرسة فى الحروب الصليبية، وحاول لويس التاسع ملك فرنسا احتلال مصر، بعد أن يغزوها .. وهبت مصر كلها حكاما وشعبا للدفاع عن الوطن، كان الإمام الشاذلى من الذين توجهوا إلى المنصورة مع خيرة من علماء عصره من أمثال العز بن عبد السلام، ومعه كوكبة من علماء مصر.. لحث الناس على الجهاد فى سبيل الله، والتصدى لجحافل الغزاة.

لم يمنع الإمام الشاذلى أنه قد وهن جسمه، وكف بصره، بل إن

فقال :

السماع من الخلق جفاء.

وقال الشاذلى: سألت أستاذى ـ يقصد ابن مشيش ـ رحمه الله عن السماع فأجابنى بقوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩ـ٧٠]

وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن الإمام الشاذلى من المنكرين للسماع، مع أن بعض أتباعه الآن يستخدمون فى احتفالاتهم وموالدهم الموسيقى والإنشاد.

ويورد قول الشاذلى:

رأيت فى النوم كأن بين يدى كتاب الفقيه ابن عبد السلام، وأوراقًا فيها شعر من جزء، وإذا باستاذى رحمه الله واقفًا، فتناول كتاب الفقيه بيمينه والأوراق بشماله، فقال لى كالمستهزئ: أتعدلون عن العلوم الذكية؟ وأشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى أشعار ذوى الأهواء الرديئة، وأشار بيده إلى أوراق الشعر، ثم رماه فى الأرض وقال لى: من أكثر من هذا فهو عبد مرقوق لهواه، وأسير لشهوته ومناه، يسترقون بها القلوب بالغفلة والنسيان، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود ، ولم يحظ أحد منهم بما حظى أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضاً».

فالشاذلى ـ رحمه الله ـ لم يكن إذن من أصحاب مذهب وحدة الوجود.. ولكن كان إنسانا عابدا.. زاهدا .. يسير فى طريق الحقيقة والشريعة دون شطحات.. يرى أن النجاة فى التمسك بالكتاب والسنة .

ومن يقرأ أوراده أو أحزابه، سوف يرى أنه أمام بحر زاخر من شفافية النفس، وصفاء الروح .. وفيها من التجليات ما يجعلنا نرى فى الشاذلى إنسانا عالما.. عاملا بعلمه.. وانظر إلى هذا الدعاء الذى كان يدعو به ربه.. لنرى كم كان هذا الرجل حريصا على أن يسمو بروحه إلى مدارج النور.

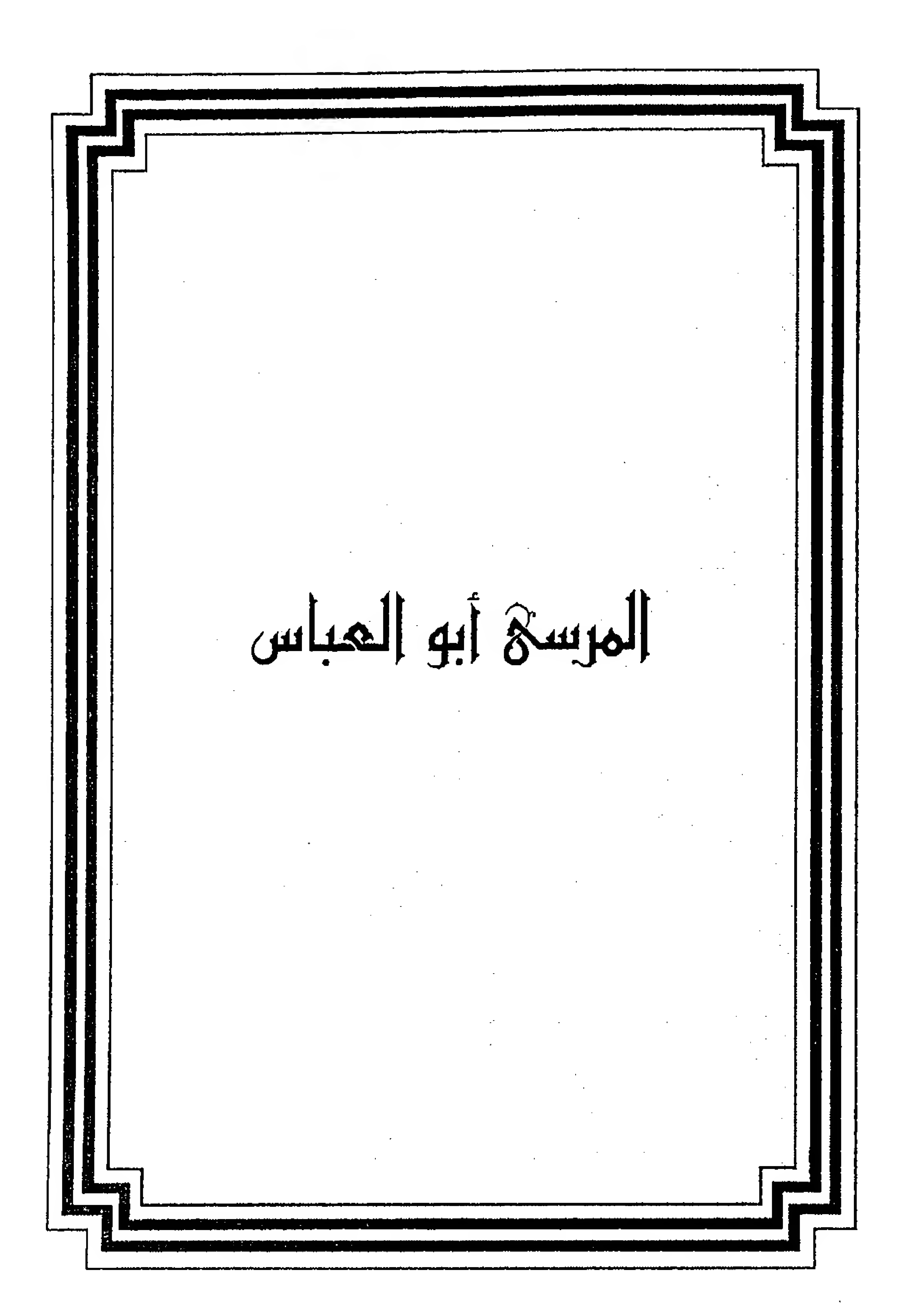
(يا الله، يا فتاح يا عليم، يا غنى يا كريم.

افتح قلبى بنورك وارحمنى بطاعتك. واحجبنى عن معصيتك، وامنن على بمعرفتك.

واغننى بقدرتك عن قدرتى، وبعلمك عن علمى، وبارادتك عن إرادتى، وبحياتك عن حياتى، وبصفاتك عن صفاتى.

وبوجودك عن وجودى، وبدنوك عن دنوى، وبقربك عن قربى، وبحبك عن حبى، وبصدقك عن صدقى، وبحفظك عن حفظى ، وبنظرك عن نظرى، وبتدبيرك عن تدبيرى، وباختيارك عن اختيارى، وبحولك وقوتك عن حولى وقوتى، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمى وعملى، إنك على كل شئ قدير) .

* * *



المرسي أبو العباس

الحديث عن أبى العباس المرسى حديث مشوق. . لأنه حديث عن إنسان ترك أثراً عميقا فى حياته وبعد مماته.

وهو نفس الوقت خليفة العارف بالله أبو الحسن الشاذلى.

وعندما نشير بسرعة إلى تلك الحياة الخصبة المثمرة المعطاءة فإننا بذلك نعطى مجرد إشارة أصبع لهذه الشخصية الجليلة.

فالحديث عنها يمكن أن يستغرق عدة مجلدات.

وسيرة هذا الرجل يمكن أن تكون قدوة صالحة للسالكين طريق الله. . وطريق الله يتمثل دائماً فى كتاب الله وسنة رسوله.

من هنا نرى أن أبا العباس المرسى كان إنسانا متعدد الجوانب. . فهو صوفى عظيم. . وهو مرب فاضل. . وهو عالم جليل. . كما أنه كان صاحب كرامات عديدة. . والكرامة بالنسبة للأولياء. . كالمعجزة بالنسبة للأنبياء. . وكلتاهما. . المعجزة والكرامة من الأشياء التي يعجز العقل والمنطق عن تفسيرهما. . ولكنهما تكريما من الله سبحانه وتعالى لأنبيائه وأوليائه. . فإحياء الموتى على يد عيسى. . والإسراء بمحمد. . وشق البحر بعصا موسى. . كل ذلك من قبيل المعجزات. . ونداء عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسارية أن يلزم الجبل. . وكان سارية محاصراً من قِبَل الأعداء فسمع وهو بالشام على بعد مئات الأميال صوت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له: يا سارية الجبل!. . وماكان منه إلا أن صعد إلى الجبل ونجا بجنده من الأعداء. . هذا من قبيل الكرامة. . وهكذا. .

زيارة الشيخ فسرت معه. فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل فدهشت!

فقال لى: عثرت على خليفة الزمان: ما أسمك؟ فذكرت له اسمى ونسبى، فقال لى : رفعت لى منذ عشر سنين.

وكانت هذه الصحبة مع الشاذلى.. والذى أخذ يتعهده برعايته ليكون خليفته.. ومات الشاذلى، ودفن (بحميثرة) بالصعيد وهو فى طريقه إلى الحج.. بعد أن أوصى أن يكون خليفته أبا العباس المرسى.. وكان أبو العباس المرسى يقول :

(لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو حجبت عنه طرفة عين ماعددت نفسى من جملة المسلمين).

وكان المرسى أبو العباس يقول أنه شاهد الخضر عليه السلام.

ويروى لنا التاريخ العديد من الكرامات التى نسبت إلى هذا القطب الجليل.

وعلى سبيل المثال لا الحصر.. يروى عنه أن السلطان يعقوب ذبح دجاجة وخنق أخرى ودعا الشيخ أبو العباس المرسى فرفض الأكل قائلاً:

إن احدى الدجاجتين جيفة، والأخرى بخرت بحرق هذه الجيفة..

ومن الكرامات التى تروى عنه أيضا.. أنه وبعض المريدين كانوا

مع شيخهم الشاذلى وهو فى طريقه إلى الحجاز . . ومات الشاذلى فى الطريق . . ودفن الشاذلى . وغسّله المرسى ، وصلّوا عليه . . ودفن (بحميثرة) . . وطلب المرسى أبو العباس أن يواصلوا طريقهم إلى بيت الله الحرام . . فقد أمره الشيخ الشاذلى بذلك ، وأخبره أنه سوف تحدث بعض الكرامات . . وقد حدثت كرامة يقصها أبو العباس المرسى بقوله :

سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه : فى السنة التى توفى فيها ، فلما كنا عند أخميم ، قال لى الشيخ :

رأيت البارحة كأنى فى جلبلة وأنا فى البحر والرياح قد اختلفت والأمواج قد تلاطمت ، والمركب قد انفتح وأشرفنا على الغرق . . فأتيت إلى جانب المركب وقلت :

أيها البحر . . إن كنت أُمرت بالسمع والطاعة لى . . فالمنة لله السميع العليم ، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم . . فسمعت البحر يقول لى :

الطاعة . . الطاعة . .

فلما سافرنا . . وتوفى الشيخ رضى الله عنه ودفناه بحميثرة فى صحراء عيذاب ، وكنا فى جلبة . . فلما صرنا وسط البحر . . اختلفت الأمواج ، وتلاطمت الرياح ، وانفتح المركب ، وأشرفنا على الغرق . . ونسيت كلام الشيخ . . فلما اشتد الأمر . . ذكرت ذلك . . فأتيت إلى جانب المركب وقلت : أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع

عاماً. . زار فيها مكة والمدينة ومختلف أرجائها التى تذكره بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام وجهاده العظيم. . هناك شفت روحه. . وصفت نفسه. . وأحس أنه قريب من ربه. . وأن الأضواء تغمره.

وقيل أنه عاد إلى مصر بناء على دعوة شيخه فى مصر إليه، يعود لكى يحضر وفاته ويشيعه إلى مثواه الآخير. . جاء إلى مصر شخصية أخرى.

إنسان محب لله. . خاضع له. . خاشع قلبه. . يجرفه الحنين إلى أم القرى حيث بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بنشر دعوة الإسلام بما فيه من مبادئ وقيم وعقائد، ويحن إلى التراب الذى كان يسير عليه أعظم رسل السماء، فترنم بتلك الأبيات الشديدة العذوبة:

يا سـميرى روِّح بمكة روحـى

شـاديا إن رغبت فى إسعـادى

كان فيها أنسى ومعراج قدسى

ومقامـى المقـام والفتـح بادى

وكان من الطبيعى بعد أن ذاق لذة العبادة. . وجمال الشفافية. . وجلال القرب من الله. . أن يواصل عبادته ومجاهداته فى وادى المستضعفين فى المقطم حيث بدأ مسيرته، وجال المساجد الأخرى وابتدأ الناس يسمعون عنه. . وابتدأ الناس يحاولون الاغتراف من

وهامت بها روحى بحيث تمازجا اتِّـ
حــادًا ولا جــرمٌ تخلَّلــه جِــرْمُ

ولا قبــلها قبــلٌ ولا بَــعْدَهَا بَعْـد
وقَبْلتــهُ الأبعــاد فهــى لهـا حتـم

لقد كان ابن الفارض يؤمن بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله من منزلة المقربين إليه، والمقربون إليه هم الذين يسيرون على هدى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام مما أورده البخارى:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان.. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

وكان أعظم رسل الله يقول فى دعائه:

«اللهم ارزقنى حبَّك وحبَّ من يحبك، وحب من ينفعنى حبَّه عندك، اللهم مارزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغا لى فيما تُحَب».

فالحب هو منتهى ما يريد أن يصل إليه الصوفية ..

إنه الذوبان فى العشق الإلهى..

وهم يستندون فى ذلك إلى الحديث الشريف الذى يقول إن العبد يتقرب إلى الله بالنوافل، حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذى

يستنشد من يحفظ منها أبياتا، وإذا كاتب ممن يختلفون إلى ابن الفارض ويحفظون أشعاره يقول إنه يحفظ منها قصيدة طويلة فى مائة وخمسين بيتاً، يقصد يائية ابن الفارض . .

سائق الأظعان يطوى البيد طىّ

فطلب إليه السلطان أن ينشدها حتى إذا انتهت منها سأله عن ناظمها فقال له إنه ابن الفارض الصوفى،وذكر له من أحواله فى العبادة والنسك ما جعله يرسل إليه معه بألف دينار لينفقها ابن الفارض على المتصوفة الواردين عليه.

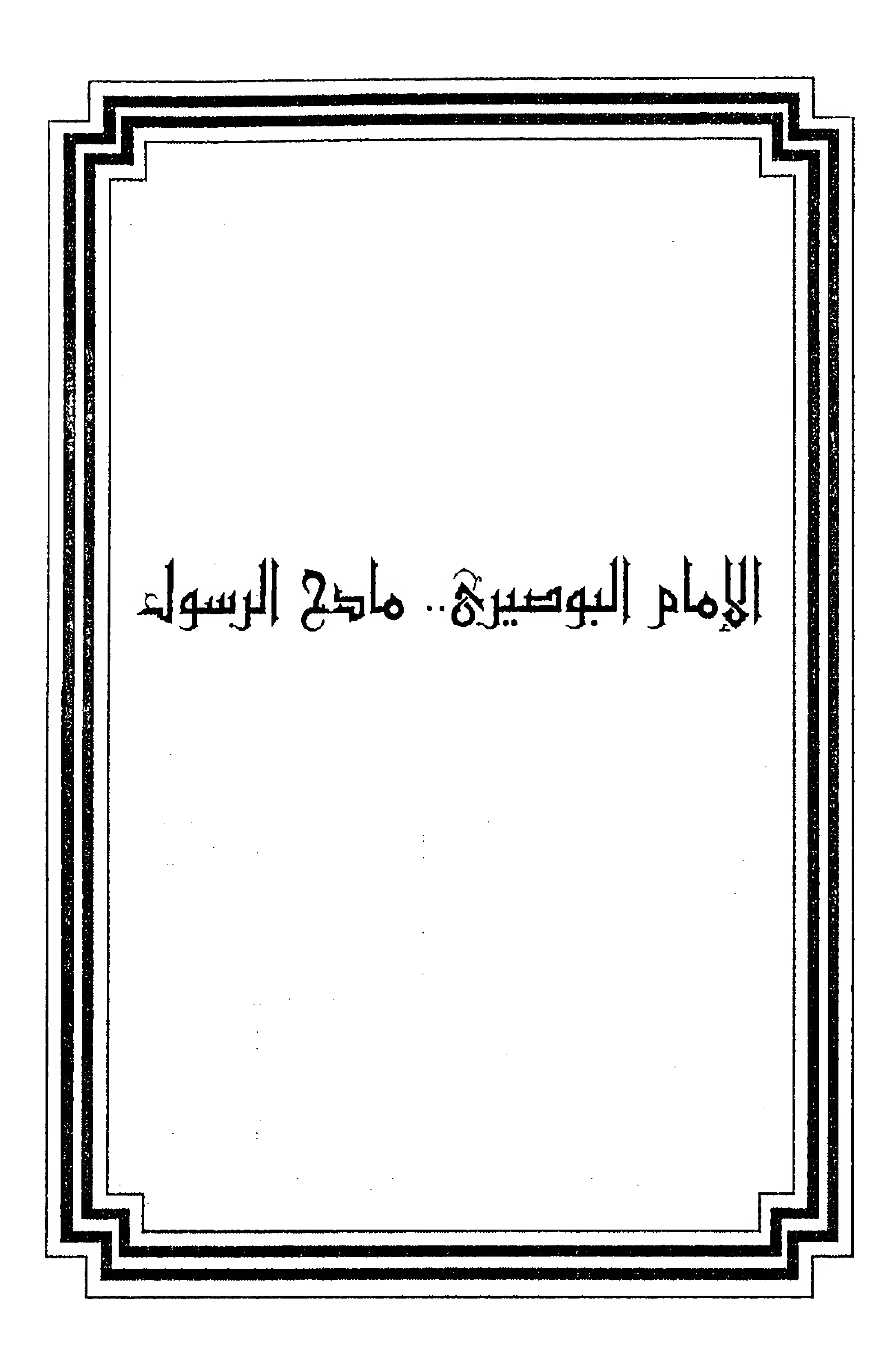
ونمضى مع هذه القصة . . ونعرف أن ابن الفارض رفض هذا المبلغ، بل إنه عنّفَ تلميذه بقوله:

مالك ولذكرى فى مجلس السلطان؟ ردَّ إليه الذهب! فردّه إلى صاحبه.

ويحدثنا عن الحادثة الثانية وخلاصتها أن الكاتب حين عاد بالذهب إلى السلطان الكامل قال له:

أيكون مثل هذا الشيخ الصالح فى زمانى ولا أزوره، لابد لى من زيارته ورؤيته.

وركب إلى الأزهر فى جماعة من حاشيته يريد رؤيته والتماس الدعاء منه، ولم يكد ابن الفارض يحس بقدومه حتى خرج من باب آخر من أبواب الجامع ورحل توّا إلى ثغر الإسكندرية، وأقام هناك أياما، ثم عاد إلى الأزهر معلولاً شاعرًا بدنو الأجل . . وعلم



الإمام البوصيري.. مادح الرسول

اسمه شرف الدين أبا عبد الله. . ولد سنة ٦٠٨هـ وتوفى سنة ٦٩٨هـ، وهو ينسب إلى قرية أبو صير بالجيزة، ويقول بعض مؤرخيه أنه ينتسب إلى أصول مغربية. . وقد درس البوصيرى الشريعة، وتعمق فى اللغة، وعمل فى محافظة الشرقية ككاتب فى دواوين الحكومة، ولكنه لم يعجبه ما كان يراه من عدم أمانة الموظفين، وعدم رعايتهم الله والناس فى عملهم، فكتب فى ذلك شعرا طريفا . . إلا أنه وقد عرف الإمام الشاذلى، وتلميذه المرسى أبو العباس، فقد تأثر بآرائهما فى التصوف ورؤياهما لواقع الحياة وما فيها من أباطيل، وأن الخير كل الخير فى الاتجاه إلى الله، والزهد فى الدنيا. . ومن هنا فقد آثر أن يكون عابدا على طريقة المدرسة الشاذلية وأن يتفرغ لطاعة الله.

كان من الطبيعى فى إنسان له شفافية البوصيرى وحسه وشاعريته وحبه لأهل الله، أن تتوق نفسه لصاحب الرسالة النبى العظيم، وأن تكون نفسه مراة تعكس ما كان فى عصره من أحداث، ومن أهم هذه الأحداث الذى شاهدها الحروب الصليبية وما تركته على أرض الشرق من بصمات. فقد حاولوا اغتصاب فلسطين، وتطلعوا إلى غزو مصر والشام، وتركوا ألسنتهم تتحدث مهاجمة الإسلام والمسلمين. . فكان من الطبيعى على البوصيرى أن يرد على هجماتهم، ويعيب عليهم انحرافهم وتحريفهم للمسيحية واليهودية، وكان عليه أن يشدوا بنبيه العظيم. . خاتم الأنبياء والمرسلين. .

كان البوصيرى مبهورا بصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام، وبمواقفه العظيمة، وصموده الهائل أمام المشركين، بجانب شمائله وأخلاقياته الرفيعة.. فكانت سيرة حياته هى المنبع الذى كتب فيه أجمل أشعاره.

وكان كغيره من الصوفية يرون أن النور المحمدى هو أصل الوجود.. وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان نورا فى المنازل، إلى أن جاء إلى الدنيا ليجسد كل الفضائل.

وكان الإمام البوصيرى من هؤلاء الذين درسوا مسيرة الرسول الأعظم، وتاهوا إعجابا بها، وبرز ذلك فى شعره عندما سجل مشاعره حتى تاقت نفسه إلى زيارة الرحاب المقدسة، وأداء فريضة الحج وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ومنذ أن وقف كعب بن زهير يمدح الرسول فى قصيدته المشهور البردة، وأعجاب الرسول بهذه القصيدة، حتى أنه خلع عليه بردته، تلك البردة التى اعتز بها صاحبها.. وظلت وديعة غالية عند أولاده وأحفاده إلى أن اشتراها معاوية بن أبى سفيان بمبلغ كبير من المال، وتوارثها من بعده خلفاء بنى أمية.. منذ ذلك الحين والشعراء يحاولون أن ينهجوا نهج هذه القصيدة، ومن هنا كانت القصائد التى تأخذ نفس النهج يطلق عليه نهج البردة كما فعل الإمام البوصيرى فى عصره، وأمير الشعراء أحمد شوقى فى عصرنا الحديث.

ويقول دارسو الإمام البوصيرى أنه كان على علم بالتوراة والإنجيل، فقد درس المسيحية واليهودية، ليرد على مزاعم من يهاجم الإسلام من المسيحيين واليهود، وله قصيده اسماها (المخرج والمردود على النصارى واليهود).

كما أن له قصيدة نظمها سنة ٦٥٤هـ، حين احترق سقف المسجد النبوى، يرد فيها على من شمت من اليهود والنصارى بهذا الحدث، وقد استهل قصيدته بقوله:

الهى على كل الأمور لك الحمد

فليس لما أوليت من نعم حد

وفى هذه القصيدة يشيد بالرسول وبخلفائه الأربعة، كما يتحدث عن معجزات الرسول الكريم.. الذى أنزل الله عليه معجزة القرآن، ومعجزات أخرى كالإسراء والمعراج.

وعندما حج البوصيرى.. وطاف بالأماكن التى طاف بها الرسول.. أخذ تتداعى إلى ذهنه مواقف النبى وبطولاته ومناقبه، فنظم بعد أن عاد إلى مصر قصيدته الهمزية الرائعة (أم القرى فى مدح خير الورى»..

والتى مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد حا

ل سنا منك دونهم وسناء

ويقول الرواة.. إن هذه القصة شاعت، حتى أن الوزير الملقب بالصاحب، طلب من البوصيرى أن يسمعها.. ويستهل هذه القصيدة بقوله:

أمن تذكر جيران بذى سلم
فرجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا
وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وفيها يصف الرسول العظيم بقوله:

فاق النبيين فى خلق وفى خلق
ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم
من نقطة العلم أو من شكله الحكم
فهو الذى تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيبا بارى النسم

وهو يرى فى هذه القصيدة أن محمدا عليه الصلاة والسلام كالشمس وبقية الأنبياء كالكواكب التى تدور فى فلكه، ثم يعرج

مهما يكن من شيء فإن البوصيرى الذى خلده شعره، ما كان يمكن أن يصل إلى المكانة التى وصل إليها كشاعر وصوفى عظيم، إلا لأن الله وهبه مع تقواه وحبه للرسول وآل بيته، تلك الشاعرية المتدفقة حتى قيل عنه أنه عندما كتب قصيدته الشهيرة تلك توقف عند هذا البيت من الشعر:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر

واستعصى عليه أن يكمل البيت، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام، وأكمل له البيت

فمبلـغ العـلم فيـه انـه بشـر
وأنـه خيـر خـلق اللـه كلهـم

وسواء أكان هذا حقيقة أم من أقوال الرواة، فقد كان الرجل محبا للرسول وآل بيته، وكان شفيف الوجدان.. زاهد.. يخشى الله ورسول.

* * *

وقارئ أشعار البوصيرى يرى لها إيقاعا خاصا.. ولها موسيقى تهز الجوارح، وتصل إلى أعماق الإنسان، ومن هنا فقد كانت قصائده تنشد فى الموالد، وحلقات الذكر، ويهتز الناس لها طربا.. ليس فى مصر وحدها بل وفى بعض البلاد العربية وخاصة بالشام.. وأصبحت البردة، والهمزية، من أشهر القصائد الذى يترنم بها الناس، وخاصة الصوفية.

بالبشارات التى بشرت به فى التوراة والإنجيل. وهو فى هذه القصيدة الذى يتحدث فيها عن مناقب أعظم رسل الله، ويرد على افتراءات الكذبة المفترون، ويعلن أن النبى الخاتم هو أعظم رسل الله. . وفيها نقرأ مثل هذه الأبيات:

مـازال يـرقى فى مواهب ربه

وينال فضـلا من لدنه جزيلاً

لواستمـد العالمـون علومـه

مـدتهم القطـرات منـه سيولا

وهو صاحب هذه الأبيات الشهيرة، التى تدل على مدى عشقه للذات المحمدية، وأنها أخذت عليه جوانب نفسه، فهو يعرف قدر هذا الرسول العظيم، الذى أخرج برسالته الخالدة، الناس من الظلمات إلى النور، وكيف عانى ما عانى فى سبيل نشر هذه الدعوة التى تنشر العدل والإخاء والمساواة والحب والأمل بين الناس، بما فيها من تشريعات وعقائد ترفع الإنسان إلى مستوى يليق بالانسان. . إنه القائل:

نحن أشـرف الأعراب والعَجم

محمد خير من يمشى على قدم

محمـد تـاج رسـل اللـه قاطبة

محمد صادق الأقوال والكلم

إلى آخر هذه الأبيات التى تشدو بالنبى الخاتم وتوفيه بعض حقه

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- الأحاديث النبوية الشريفة

٣- عوارف المعارف للسهروردى تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ودكتور محمود بن الشريف

٤- الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى

٥- مدخل إلى التصوف الإسلامى د. أبو الوفا التفتازانى

٦- التصوف الإسلامى الخالص السيد محمود أبو الفيض المنوفى

٧- التصوف الثورة الروحية فى الإسلام د. أبو العلا عفيفى

٨- الإحياء للإمام الغزالى

٩- المنقذ من الضلال للإمام الغزالى

١٠- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء د. سعاد عبد الرازق

١١- رحلة بين العقل والوجدان د. محمد كمال جعفر

١٢- الطرق الصوفية فى مصر د. عامر النجار

١٣- والموعد الله	خالد محمد خالد
١٤- قطوف من أدب النبوة	أحمد حسن الباقورى
١٥- الأدب الصوفى اتجاهاته وخصائصه	د. صابر عبد الدايم
١٦- الفلسفة والحقيقة	د. عبد الحليم محمود
١٧- أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى	د. عبد الحليم محمود
١٨- الدكتور التفتازانى أستاذ التصوف ـ ومفكرًا إسلاميا	كتاب تذكارى باشراف د. عاطف العراقى
١٩- فصول فى الشعر ونقده	د. شوقى ضيف
٢٠- مرشد الزوار إلى قبور الأبرار: للإمام موفق الدين بن عثمان	تحقيق محمد فتحى أبو بكر، تقديم د. حسن الباشا
٢١- الله.. دراسة فى النص الكامل لرسالة القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندرى	لفاروق منصور.

رقم الإيداع ٩٧/١٣٠٠٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-294-036-1

طبع آمون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦

